مَدينةُ الشَّمْس

مَدينةُ الشَّمْس

(رواية)

مينا ناجي

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E–mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٦٤٥٣/ ٢٠١٩

I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 570 – 4

مَدينةُ الشَّمْس

رواية

مينا ناجي

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

ناجى، مينا

مدينة الشمس: رواية/ مينا ناجى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٤ ٥٧٠ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣,٠٨٧٢

رقم الإيداع / ٢٦٤٥٣ / ٢٠١٩

إلى مـامـا
(2019 – 1952)

«لا شيء أكثر طرافةً من التعاسة، أوافقك. لكن...
بلى، بلى، إنها أكثر شيء هزلي في العالم».

مسرحيّة "نهاية اللُعبة" – صمويل بيكيت

المَهَمة الأولى

جاءت أول مَهَمة سريعًا. عميل فرنسي يطلب التحقيق بشكل سري في عملية اختفاء غامضة.

في الواقع عميلة، كما أوضحت بعد ذلك مشيرة إلى اسمها بحرف د..

جاءت المهمة عبر إيميل قصير بإنجليزية باهتة يبلغ عن عملية اختفاء مفاجئ حدثت في إحدى ضواحي باريس، وتعلن راسلته عن رغبتها في استكمال التحريّات لأن التحقيق الرسمي قد توقف بعد بضع إجراءات شكليّة.

ردح. برسالة فكّر في صياغتها كثيرًا مع م. مضمونها ألا تقلق، فهي قد أعطت القضية لخبراء في المجال، وإنهما سيوافوها بالتقارير بشكل منتظم كل أسبوع أو مع أي جديد يطرأ. عليها فقط بموجب الاتفاق أن تدفع

خُمس الأتعاب مقدمًا، بجانب أي بدلات ومصاريف ضمن عملية التحقيق نفسها، وفي النهاية ختم الإيميل بإمضاء H&M.

حين انتقل ح. وم. للمكان الجديد، أعدّا قائمة بالأشياء المطلوبة: مانيكان أزياء، شينيور، بطارية مهبل صناعي وعلب نوتيلا. الحل المؤقت لحين تقاطر الأجساد الأنثويّة التي تتحرك تلقائيًّا بإرادتها الخاصة. فكّر م. في شراء عدد زوجي من تلك الأشياء لكنه تراجع ورجّح استخدامها بعد غسلها جيدًا. وافق ح. وأضاف أن الأهم من الغسل قبل الاستخدام هو الغسل بعده وأرفقها بمنادى للتنبيه: «يا.. أمّك».

بعد مناقشات طويلة أضافا للقائمة: كاميرات صغيرة لتسجيل اللقاءات المتوقعة، وشاشة بلازما كبيرة 62 بوصة، وبلاي ستيشن 4، وعصوين تحكم أصليين، وغليونين أبنوسيين بمعدات الحشو والتنظيف والصيانة، وعصوين سيلفي، ولابتوبين (ماك برو)، وبذلتين (زنتاي) كاوتشوك بألوان الأزرق والأحمر، وملصقات كافكا وبول أوستر وهيتشكوك، وفايبريتور وردي للجشعات، وقاموس (ولْبستر) للطلاب، واشتراك بلاتنيوم لمواقع البورن الرئيسية، واشتراكًا ذهبيًّا لصالة الألعاب الرياضيّة (جولدز جيم)، والإلياذة، والأوديسة، والأعمال الكاملة لج. ك. تشسترتون، وسيجموند فرويد، وجورج فيلهيلم فردريش هيجل، وجورج باتاي، وفريدريش نيتشه، وجورج حنين، وإدمون جابيس، وموريس بلانشو، وأليس في بلاد العجائب، وخلف الزجاج العاكس وما رأته أليس هناك، وبلا أجنحة،

وسباعيّة البحث عن الزمن الضائع، وثلاثيّة رأس المال، وصورًا عارية مُوقَّعة من كيم كاردشيان ومونيكا بيلوتشي ونيكي ميناج، ودامبلز 5 و10 و25 كيلو، وعقلة، وبارًا حديديًّا بتارات متدرجة الأوزان، وعجلة ثابتة، ومشّاية، وجهاز بنش، وأكتافًا، وحلبة ملاكمة، وقفازات، وشورتين، وواقيا أسنان، ومنظمًا لضربات القلب، وعكازًا مزدوجًا، وجهازًا لقياس الضغط وجهاز لقياس السكر، وحبوب تخسيس، وصندوق (بلاك ليبل) وصندوقا (بيليز) بنكهة الشوكولاته والكراميل، وصندوق فودكا (سميرنوف)، وصندوق شامبانيا فرنسية، ومجموعة الأفلام الكاملة لإنجمار بيرجمان وجان لوك جودار ولوي مال وروي أندرسون، والتبرع لصندوق (تحيا مصر)، وأريكة حب متعددة الأجزاء، ولمبات حمراء، وكهارب ملونة ومفارش حريرية حمراء وجلد النمر، وقناع جدي وقناع وعل وقناعين فيفي عبده خمسة مواه، وعلب ترامادول وزاناكس، وعلب سيالس، ولحوم وأرز وفراخ ومكرونة ومعلبات تونة وسردين وبلوبيف ولانشون وكل حيل الشيطان ومؤامرات الناس الأشرار، وشهادة دكتوراه من الكلية الملكية للطب النفسي بلندن، وشهادة دكتوراه في الأدب المقارن من جامعة (بيركلي)، وخريطة للعالم، وخريطة لمصر الجديدة، ومشوِّش إرسال، وأسطوانات أصلية لمحمد عبد الوهاب من شركة (بيضافون)، وجهاز بيك أب، وسماعات ستريو 7000 وات، وعلبة معجون أسنان (سنسوداين) للأسنان الحساسة وفرشتيْن بمواتير صغيرة مختلفتي اللون عليهما رسوم بطوط وميكي، بطوط لـ م. وميكي لـ ح..

في نفس اليوم تحدثا مع العميلة **د**. عبر سكايب حديثًا صوتيًّا فقط دون صورة بناءً على طلبها. بإنجليزية مفككة ذات لكنة فرنسية ثقيلة حاولت أن تشرح أن المفقودة لديها طفل وحيد ولا بد أن تعثر عليها في أقرب وقت. تناوبا الأسئلة وفهما منها أنها في يوم الاختفاء كانت عندها بالمنزل. شربت كثيرًا ولم تستيقظ سوى في المساء فلم تجدها، بل وجدت **ف**. شريكها، الذي أبلغها أنها لم تكن موجودة حين جاء بعد الظهر. سألها م. إذا كانت تظن أنها قد انتحرت، فنفت بحدّة قائلة إن «داليا» ليست من هذا النوع بل تحب الحياة، كما أنها لم تترك رسالة أو أي شيء آخر. في النهاية، اتفقا معها على بدء التحريّات سريعًا وإعلامها بأي معلومات يتوصلان إليها.

بدايـات

بعد عامين من المحادثات على الفيسبوك قرّر ح. أن الوقت قد حان لافتتاح دار النشر (إيليتيس) بمنطقة مصر الجديدة.

مدفوعًا بالوحدة والملل، صرف ح. نصف إرثه عن أبيه ونزل أخيرًا إلى القاهرة. سجَّل اسم الدار في الشهر العقاري واستخرج تصاريح التأسيس والسجل التجاري والبطاقة الضريبيّة، وعثر م. عن طريق أمه على شقة قريبة من مكان عملها في شارع (يعقوب أرتين) بإيجار شهري 4000 جنيه. الشقة واسعة تقع بالدور الثالث وبها ثلاث غرف قسموها إلى غرفتي نوم وغرفة مكتب، بجانب المطبخ والحمام.

كانت خطتهما أن يحصلا على حق نشر أعمال كاتبين معروفين -في الوسط الثقافي على الأقل- كبداية قويّة للدار، وبعدها ينشران أي شيء لأي أحد. اعترض م. في البداية مستدعيًا مقولة ناشر أجنبي نسي اسمه:

«هناك مئة مليون كاتب حول العالم، لذا من الصعب أن أجد ما أنشره ويكون جديدًا». شَخَر ح. قائلًا إن هذا كلام ساذج لا يؤكل عيش وأن هدف المشروع أصلًا هو إيجاد مصدر دخل ثابت له. رضخ م. في النهاية لأن ما يهمه في الحقيقة هو أن تكون الدار داخل محيط مصر الجديدة، وأن يستقل عن بيت أهله بعد تخرجه من الجامعة في سن السابعة والعشرين. وفوق ذلك أيضًا سيحوز على برستيج لقب *ناشر*. حاول م. أن يجعل نقطة مصر الجديدة في صالحه بأن يقنع ح. أن الدار ستغطي مناطق لا يوجد بها أي دور نشر، لكنه لم يهتم بتلك التفصيلة على أي حال.

لمدة أسبوعين لم يحدث أي شيء. لم يأتِ أحد. أي أحد.

كانا يقضيان معظم اليوم معًا في الصالة أمام شاشة البلازما الكبيرة يتفرجان على فوكس موفيز وإتش بي أو وناشونال جيوجرافيك أو يوصلانه باللاب توب ليشاهدا مسلسلات سيت-كومز أمريكيّة وهما يحشّشان وعلب البيتزا والبيرة وأكياس الدليفري الورقية ملقاة حولهما في كل مكان.

أمام مسلسل (ساينفيلد) أعلن ح. وهو يقضي على الجوينت في يده، دون أن ينظر تجاه م. أنه مكتئب. كانا لا يريدان مصارحة بعضهما بتسلل شعور الملل والكآبة، فهما في بداية حياة جديدة شائقة. أوقف م. الحلقة وسأله وكرشه يبرز من القميص الهاواي الأحمر المفتوح إذا كان مكتئبًا لأنهما بمفردهما في يوم الفلانتاين. نفى ح. بحدّة وقال إنه يشعر بعدم إنجاز شيء حتى الآن، سواء في الكتابة أو في الحياة عمومًا، وأن شعوره الذاتي كشخص

بالغ الأهمية لا يكفي كما اكتشف أثناء تفكيره في الأمر هذا الصباح.

قال بنبرة حزن وهو يشعل سيجارة: «أنا عايز الناس تحس». ثم سأله إن كان يعرف «محمد اليماني» لاعب الكرة. نفي م. بهز رأسه في بطء، فقال له إنه في عمر السابعة عشرة أجمع الناس على أنه سيصبح أفضل لاعب في مصر، وربما على مستوى العالم، بعدها فشل فشلًا ذريعًا، اتضح أنه لاعب سيئ، وهو لا يريد أن يصبح يماني الكتابة. بعد فترة من الصمت قال بحزن أكبر: «تعرف إني يوم 1 أبريل الجاي هانهار، هازعل جدًّا، خايف من اليوم ده».

سأله م. لماذا 1 أبريل تحديدًا، فرد:

«حد قالي على موقع بيبعت ايميلات في يوم تحدده، أنا اخترت يوم عيد ميلادي وبعت لنفسي إيميل، بعت قايمة حاجات المفروض أكون أنجزتها قبل عيد ميلادي، عشان أفتكرها وأحس إني أنجزت. ولا شيء من الحاجات دي حققته، وهيوصلني الإيميل، وهازعل. تعرف، لو نقطة واحدة كانت اتنفذت كنت ممكن أضحك على نفسي وأصبّر نفسي شوية».

فكر م. قليلًا وقال:

«أظن أسوأ من دا إن حد يبعت رسالة فركشة في 1 أبريل، الطرف التاني هايفضل فاكر إنه بيهزر وهو بيحاول يشرحله بكل الوسايل إنه بيتكلم بجد».

صمت ح. ولم يعلق، ثم استأنف كلامه:

«فكرت النهاردة إني هافتح الإيميل يومها وأمسح الرسالة من غير ما أقراها واتصرف كإني مشفتهاش.. مخطط لكده».

قام من مكانه فجأة وركل علبة بيتزا كبيرة الحجم فتناثرت بقايا الطعام منها في كل اتجاه، وقال كأنه يَعد جمهورًا كبيرًا أمامه:

«هاخرج كل يوم ساعة، ألعب بلياردو، أو أقعد على القهوة، ساعة أو ساعتين. وهادخل في علاقة». اندمج أكثر فارتفعت نبرته: «والله لازم الشهر دا أدخل في علاقة». وأضاف بطريقته الأثيرة في رمي مقولات غير متوقعة: «إذا امتُحِنتَ بعدمٍ وابتُلِيتَ به.. فاجلد عميرة حتى تنقضي المحن»، ثم دخل غرفته وأغلق الباب خلفه.

***

بعد ساعتين دخل ح. فرع (البنك الأهلي) بمصر الجديدة ليسحب مبلغًا مُحوَّلًا من أخيه الذي يعمل مهندسًا في الخليج، كي يدفع الفواتير المتأخرة من الشهر الماضي. سحب رقمًا وجلس ينتظر. رآها أمامه تجلس بجانب طفلها الصغير الذي يلعب في فجوات كرسيه.. شيري.. شيرين.. الفتاة الأولى التي أحبها في حياته. كانت قد كبرت. هذا الجسد الذي كان أول شيء يدخله في حياته ويعترف أمامه بحبه قد امتلأ وترهَّل بعد أن كان جسدًا مشدودًا بمفاتن بارزة. تذكر رائحة فرجها الشبيهة بالسمك

النيء قبل قليه أو شَييّه. رائحة زفرة أدمنها مع الوقت. شعر برغبة طاغية في الذهاب إليها وترجيها أن تترك زوجها وترحل معه، أو حتى دون تركه، فقط أن يكونا معًا من جديد كما كانا وهما لا زالا مراهقان صغيران. أراد أن يقول لها إنه سيصرف كل ما لديه عليها وعلى أبنائها وعلى زوجها، لكنه جلس مكانه ناظرًا إلى شاشة الأرقام فوق الكاونتر يعدُّ كم رقم تبقى على دوره ورائحة السمك النيء عالقة بأنفه.

وَاحَة (هِيليوبوليس)

كتب الأب تيار دي شاردان لوالديه رسالة في الأول من نوفمبر سنة 1906 يقول: *«في ذلك اليوم مررتُ بأعمال البناء الضخمة للـ «واحات». هذا هو اسم مدينتين نموذجتين صغيرتين أقامهما رجل أعمال بلجيكي كبير في عرض الصحراء عند بوابات القاهرة، حوالي منتصف الطريق إلى المطرية. كل مدينة صغيرة ستكون معزولة عن العمران: البيوت التابعة لها كلها يجب أن تحتوي على حديقة وتحقق شروطًا صحيّة وجماليّة معينة. خط سكة حديد كهربائي (للمجتمع المتروبوليتاني) سيربط المكان بالقاهرة. الخطة جميلة، والآن يمكن رؤية واحدة من الواحتين. وأول شيء سيتم بناؤه هو فندق ضخم»*.

دخل م. وح. فرع كارفور يرتديان شورتات وكابات صيفيّة مع صنادل خفيفة، يمسك كل منهما سلّة معدنية، ليجدا نفسيهما داخل ممرات طويلة

يؤدي كل منها إلى الآخر. مشيا من ممر إلى ممر يليه يتبضعان، وبعد انتهائهما شرعا في البحث عن المخرج. يريا شيئًا أشبه بمخرج حيث يقترب الناس من الاتجاه المقابل، لكنه يتكشف في النهاية عن مرآة تغطي مجمل عرض وارتفاع الجدار، بينما الناس الذين كانوا يقتربون لم يكونوا غير انعكاساتهما المتعددة، فيتجهان إلى ممر آخر ثم إلى ممر ثالث ورابع، وكل ممر لا ينتهي إلا إلى مرآة.

بعد التجول صامتين بعض الوقت، أدرك م. وح. أنهما قد تاها تمامًا. أمسك م. برقبة ح. من ياقة تيشرته. ولتفاوت الحجم بينهما، كان منظرهما كأمين شرطة في مصيف يمسك بلصٍ هزيل، لكن الشرطي يقول في نبرة رجاء إنه خائف ويشعر أنه سيموت، أمسك ح. قبضة م. وسأله في توتر: «قولي إنت خايف من إيه؟»، فرد أنه يريد الخروج، وبدأ يشهق بصوت عال ويتحرك في كل الاتجاهات بسرعة يمسك الأشياء المعروضة بعشوائية ويتركها، حتى لمحا عاملًا يرصّ بعض العلب على الرفوف. جرى نحوه م. فأشار له الرجل على طريق الخروج.

هدأ روع م. ونبّه ح. أنهما قد نسيا التونة، فأكملا سيرهما وم. شجاعٌ كقرص زاناكس وهادئٌ مثل إصبع حشيش. قال ح. واضعًا يده في جيب شورته الكريمي الطويل ذي الجيوب الكثيرة كأنه يشرح أمرًا ما لتلميذ عنده: «والإله هو الذي يُولَه له. إما لشدة طرب العبد وسروره، وإما لشدة حزنه وخوفه. فيكون بين وقتين: وقت قبض ووقت بسط». أضاف وهو

يضع علب التونة في سلته: «ففي حالة القبض يوجب له هيبة، يصحب طرفها دهشة، وفي حالة البَسط يوجب له قربه، يصحب طرفها فرحة».

***

كان ح. لديه قناعة أن له ثقلًا وجوديًّا يجتذب الإناث، وأنه لو أراد الدخول في علاقة سيدخلها فورًا دون أي مجهود. وكمدرب سيرك بارع قادر أن يروِّض أشرس الإناث، وهو النوع الذي يفضّله: الأنثى النَمِرة. راهن م. أنه يستطيع أن ينام مع أي أنثى يختارها على أن تكون بين 18 و45، ويوفر معها لقاءً عابرًا لا يتعدى ربع ساعة. وتحداه أن يطرح أي اسم عليه. اختار م. شابة مطلقة غريبة الأطوار ينام معها في خلال 10 أيام. قَبِل ح. فورًا. وضّح م. أن التحدي يبدأ اليوم. اعترض ح. قائلًا:

«ياعم أخرج الأول بس، عايز تاخدني من الدار للنار، إنت إيه، كافر؟!»

رد م. في لا مبالاة أنهما بالفعل كفرة. وأضاف أنه لم يصيّف منذ عشر سنوات، لم يرَ بحرًا ولم يذهب إلى شاطئ ولم يخرج من القاهرة، ثم سأله في جديّة:

«تفتكر فيه أمل نصيّف؟»

قال ح. كأنه لم يستمع إلى ما يقوله:

«تعرف كان نفسي أشتغل إيه؟ متحر خاص. لكن للأسف المهنة دي

غير قانونيّة في مصر. دي تقريبًا المهنة الوحيدة اللي حبيت أشتغلها بجانب الكتابة».

تحمّس م. لما يقوله فأكمل ح.:

«لكن محتاجين قضية نشتغل عليها..»

قاطعه رنين جرس الباب، فقام وفتح لديلفري مطعم البرجر. نظر ح. إلي الساندوتش بعد أن أخرجه م. من علبته وعلَّق بأن هذا أكبر سندوتش هامبورجر رآه في حياته. شعر م. أنه يريد أن يأكل معه، فقال في حدة مازحة إنه قد عرض عليه أن يطلب معه لكنه رفض. برّر ح. أنه جاع من منظر السندوتش المهول، ويفكر أن يطلب الآن واحدًا لنفسه. جاوب م. وهو ينهش في السندوتش والكاتشب والمايونيز والمستردة يلوثون فمه وتبرز شريحة بصل من الجانب، كأنه يحدث نفسه:

«أنا في حياتي كلها، حياتي كلها، حياتي اللي أنا عشتها يعني، ماشفتش عذاب كده.. أنا في أيام مبقاش عارف إيه اللي بيحصلي، كأن دماغي بتشتغل غلط ومش عارف أوقفها.. يعني مثلًا أنا شفت ديجافو دلوقتي، وأنت قلت المرة اللي فاتت لو شفت ديجافو أقولك.. أنا شفت ديجافو أنا بقولك إني أنا شفت ديجافو، يعني اللي بيحصل دلوقتي ديجافو».

كان ح. غير منتبه لما يقوله م. منهمكًا في البحث عن رقم المحل وجلب هاتفه للاتصال. يلتفت م. ويقول لـ ح.:

«كل ماتكبر في السن، بيبقى موضوع العلاقات أصعب». وأضاف أنه فكّر في مواصفات الفتاة المثالية له: 1- تعيش في مصر الجديدة. 2- تسكن بين الدور الأول والسادس. 3- جميلة ومثقفة وطيبة وشخصيتها جذابة. 4- لا تريد الزواج.

قال أيضًا إن الموضوع لا يضايقه طول الوقت، لكن هناك أشياء بسيطة ممكن أن تحزنه عليه مثل صورة منظر طبيعي جميل خارج مصر، أو اثنين يبدآن علاقة يبتسمان مثل الحمقى على النيل بدون ظهور الخوف والفزع على وجهيهما، لكن أكثر ما يضايقه، يقول لـ ح.، إنه حين يتمعن في الأمر يجد أن فتاته المثالية التي يريدها لو وجدت فعلًا، فعاجلًا أم آجلًا ستشعر بالملل، لأنهما سيتقابلان فقط في مصر الجديدة، ولو لم تمل سيمل لها، وسيكره نفسه، ولو حدث إنها خرجت في أماكن أخرى بدونه سيكرهها ويحقد عليها ويشك فيها. وإنه يدرك، بقليل من التفكير، أن شخصية مريضة أو مضطربة هي فقط من تستطيع إعطاءه ما يريد وتقبله مثلما يتقبلها، لكن المشكلة أن تتوافق الأمراض والاضطرابات معًا. واستنتج من ذلك أن العلاقة الجيدة مجرد توافق في الأمراض. سكت قليلًا متأملًا هذا الاستنتاج ثم قضم قطعة أخرى كبيرة من الساندوتش الهائل قبل أن يسأل وفمه ممتلئ:

«ليه مش شايفين إن اللي بيحصل في العراق وبعدها سوريا وليبيا والمنطقة كلها ممكن يحصل في مصر؟» بلع بعض الطعام وأكمل بشكل أكثر وضوحًا وغضبًا: «منين اليقين دا؟!»

فهم ح. ما يقوله بطريقة ما، والهاتف على أذنه ينتظر رد المطعم، فرد بشكل موجز:

«هما عارفين وحتى مقتنعين، لكن لازم مأساة عشان يستوعبوا.. لازم يتفشخوا»

رد م. بحدّة شديدة:

«طيب محنا بميتين أمّك هانتفشخ معاهم برضو!»

نُخبَة

«لسه جاري ميت إمبارح، أبوه ضربه بالقلم، أبوه في السعودية وبينزل كل كام سنة يقعدله كام أسبوع، حصلت خناقة مابينهم فبلع علبة منشطات من بتاع الجيم».

هكذا بدأ مهند الشاعر كلامه فور جلوسه ووضع بعض الكتب أمامه فوقها علبتي سجائر مارلبورو أحمر. خلف المكتب يجلس ح. مدخنًا وقبالته م. يقبع أمامه لابتوب مفتوحًا على موقع (الفيسبوك). نظر إلى م. وأضاف في حماسة:

«إنت عارف إن بنات عمي الاتنين انتحروا؟ اتنين إخوات، واحدة وأنا في إبتدائي وواحدة وأنا في الجامعة.. الأغرب المنتحرة الأولى، قبل فرحها بإسبوع، وكانت بتحب خطيبها جدًّا، اشترت سم فيران دوبته في ميه وشربته، وبعدين قعدت تصرخ فودوها المستشفى، قبل ما توصل كانت

اتعمت ونظرها راح.. قعدت بتاع ربع ساعة في المستشفى وماتت، وهي في الطريق بقت تقول مش عايزة أموت.. التانية بلعت حاجة وعشرين قرص منوِّم وكانت متجوزة وعندها بنتين، كنت متربي معاها..».

الاستمتاع البادي على وجهه وهو يحكي أصاب م. بالقرف، فرجع إلى الشاشة أمامه يشغل نفسه بالتعليق على منشور أحد الأصدقاء.

يكذب مهند طول الوقت، ويغلف كذبه بحماسة وتأكيد عاطفي كبيرين، فيبدو الكذب للمستمع الذي لا يعرفه جيدًا، حقائق. وتعكس عيناه نوعًا من المهانة ممزوجة بغل وتحفز مكتوم، وتفلت بين الحين والآخر، خائنة تودده وتملقه الأوليّ، غضبًا شديدًا. غضب سرعان ما يُتَرجَم إلى عنف يتحوّل إلى سادية حين تحين الفرصة، والتي تظهر فجأة وسط طريقة كلامه الحميمية، وتتغير معها ملامح وجهه كأنه يعاني أو كأنه يمنع نفسه بصعوبة من أن يقوم ويطعن محدثه. لكن لكونه ضعيف الشخصية، فهو يخرج عنفه بأخبث الطرق، وإذا رأى انعطافته الغريزية أتت بنتيجتها، يبدع في تأليف قصة كاملة واختيار ألفاظها بعناية كي تحدث الوقع المطلوب. يؤلف بحسب اللحظة قصصًا دموية صادمة، أو علاقات عاطفيّة محتدمة، أو فتوحات شائقة، أو كتبًا خياليّة ستنشر، أو مالًا وفيرًا أتى بفعل بسيط منه. يتبدَّى أيضًا عنفه بوضوح في شتم من أمامه، بطريقة لا تُحسب عليه، كأن يتطوع مثلًا بتقديم خدمة ما لجليس، شراء كتاب أو تخليص مصلحة، ثم يبدأ في شتيمته بعنف شديد كإظهار للحميميّة، أو يكيل الشتائم بغضب وعنف

مفرطين في شكل نصيحة لمتحدث يؤنبه ضميره من موضوع ما.

«إنت يا وسخ مش قلت الديوان بتاعي هاينزل الأسبوع دا... دانا هافشخك».

رد م. مدافعًا عن نفسه:

«ياعم إنت شايف حاجة نزلت لسه، كله في المطبعة».

التفت مهند إلى ح. وقال:

«تخيّل العِلق دا كان عايزني أدفع فلوس».

رد ح. مصطنعًا الهدوء:

«أنا اللي قلتله تدفع فلوس.. أنا مش فاتحها سبيل، وإحنا هاننزل ديوانك بس عشان نزق عجلة الدار وبعدين هاتدفع زيك زي أي كلب غيرك».

ارتبك مهند وغيّر الموضوع بسرعة:

«أدفع! ماشي ياعم.. وأنا اللي جايبلك حته هاتحلف بيها...مقلبها من حبيبنا واستحرمت ماتعديش عليك..». ثم أضاف بكم هائل من الشتائم كيف إنه يستجدع معه وهو يخرج من جيبه قطعة حشيش عريضة غامقة اللون.

مد م. يده ليراها فدفع يده في عنف كأنه يوجه إهانة ح. إليه:

«شيل إيدك يا روح أمك مش هاتشم منها حاجة».

صاح م. معترضًا:

«ماهو قالك إنه هو اللي عايزك تدفع فلوس أنا مال أمي».

رد مهند بطريقة هادئة وودودة فجأة:

«هوا صحيح أمك بتشتغل في المبني العجيب دا اللي في وش العمارة؟»

بدا الاندهاش على م. أن مهند يعرف تلك المعلومة. فلا أحد يعرفها سوى ح.. سأله كيف عرف، فجاوب أنه رآها واقفة أمام مدخل المبنى المقابل تسأله إذا كان صاعدًا إليه، وأبلغته أنها والدته. لم ينسَ أن يضيف:

«ست طيبة ولطيفة مش زيك ع*ص».

دفس م. وجهه مرّة أخرى في اللابتوب مستاءً أن مهند عرف أي شيء عنه أو عن أمه، ولأنه لم يقدر أن يمسك عليه عنفه، فالأم في جلسات المصريين أهم من الكرامة الشخصية. في نفس الوقت دخلت سميرة إبراهيم من باب الشقة متأنقة كأنها ذاهبة إلى حفل أو سهرة.

سميرة شاعرة أيضًا، فالشعراء هم أول من يهجموا على دور النشر مثل الجراد ويعششون فيها ويحتلوها. تضخمت سميرة مع الزمن وزاد جنون عينيها وضحكتها المخبولة ذات الصوت المزعج. سميرة تفكر بسرعة ونَهَم مثل حركة عينيها المستعرة. تشعر بشراهتها الشديدة لكل شيء، شراهة للكتابة والجنس والعلاقات والشهرة. ذكية لكن تشعر أن ذكاءها ملعون بطريقة ملتوية وممزوج بالجنون أو الخبل. حكى ح. لـ م. قبل ذلك أنها

حاولت معه كثيرًا، موضحًا أنها لو كانت أجمل لكان رضخ لمحاولاتها.

سلّمت سميرة على الجالسين مقبلة إياهم وحين سلمت على ح. ثبتت عينيها في عينيه وتركت يدها ببطء ورقّة مفتعلة، وجلست بجوار مهند وهي تقول ضاحكة إنها تاهت في مصر الجديدة لأن الشوارع كلها متشابهة، ثم نظرت لـ ح. وقالت متأملة المكان:

«مبروك ع الدار، لطيفة بس بعيدة قوي... هو يعني إيه إيليتيس دي؟»

همّ م. للإجابة لكن مهند سبقه ورد: «إيليتيس دا شاعر يوناني أخد نوبل والشاعر المفضل بتاع م... عفيفي مطر ترجمله بالمناسبة والكتاب موجود في دار شرقيّات».

صحَّح م. كلامه:

«كان الشاعر المفضل في مراهقتي، بس اسمه حلو وينفع».

ضحكت سميرة بطريقتها العجيبة موافقة على كلامه، وقالت إنها تقرأ رواية جديدة لصنع الله إبراهيم وأخرجتها من الحقيبة وقالت إنها مختلفة عن بقيّة أعماله السابقة، ثم سألت ح.:

«إنت مش قلتلي إنه عايش في مصر الجديدة».

رد ح.:

«م. هو اللي قالي أنا مشفتوش».

قال م.:

«أمي قالتلي إنه ساكن قريب من هنا وكان بيجي العيادات».

سأله ح.:

«طيب ياعم مش نشوفه ينشر معانا حاجة».

التمعت عينا مهند وتدخل في سير الحوار:

«دي فكرة ممتازة.. أنا أعرفه وممكن أكلمهلكم وهاعرف إزاي أقنعه».

تجاهله م. لمعرفته حقيقة تطوعاته تلك، لكن ح. تحمس للفكرة وقال له:

«ياريت عشان يبقى ليك لازمة كده بدل مانتا مكلفنا طباعة وورق كده ع الفاضي».

تجاهل مهند الإهانة وتوجّه بحديثه إلى سميرة ليسألها هل لا زالت ترى فلان، ارتبكت ونفت وقالت إنها لم ترَ أحدًا طوال الفترة الماضية. سألت بدورها م. ماذا سينشرون كبداية فقال:

«مجموعة لصديقنا ميزو، وكتاب مقالات ونصوص لعزيز نصر، ديوان لجو وديوان لمهند، وتلات روايات لـ..». قاطعه دخول تُقى وإسماعيل معًا. قال م. بصوت عالٍ يستقبلهم به «أهي تُقى جت ع السيرة».

كان اللقاء الأول بين م. وتُقى غريبًا. لم يكن لقاءً وجهًا لوجه، لكن على إنبوكس الفيسبوك وانتقل سريعًا إلى الهاتف، ليكون أول ما يسمعه م. هو

لهاثها المهتاج في أذنه، فيدعك قضيبه ويسألها إن كانت تشعر به يدخلها. يُدرك فورًا سذاجة وسخافة السؤال، إلا لو كانت القضبان تمر عبر الموجات الكهرومغناطسيّة وتسافر في الهواء ليتم إعادة تكثيفها عند، أو للدقة «في»، الطرف الآخر. تتابع بعد ذلك خليط من لهاث وتأوهات واستجداءات وتعليمات انتهى باندفاع السائل الأبيض وصرخة في الأذن.

«دي أول مرة ليا». تصارحه، ثم تضيف: «طول الوقت ببقى عايزة وبحب أحط الأقلام والحاجات في بُقي». تأثر صوتها قليلًا: «بس عمري ما قدرت أوصل قبل كده». شعر وقتها بأنه قام بعمل خيري وأنه يساعد الناس كما أراد دومًا.

اكتشف م. بعد قليل من تعارفهما أنهما كالِين واليانج؛ هو خائف من الجنون يتشبث بالعقلانيّة وهي عاقلة تتشبث بالجنون على حد قول حسين البرغوثي. وبصورة ما ينفِّره هذا منها، كأنها تتاجر بالمصائب وتتحصَّن في الحياة والكتابة بما هو مؤذٍ ومهين. لكنه في نفس الوقت يعزّها لأنها طيبة القلب بالفعل. تُقى طبيبة تتخصص في مجال الأمراض الجلدية رغم أنها لا تحب هذا التخصص، طويلة، تحب الكتابة. ستنشر روايتها الثانية ضمن الدفعة الأولى من روايات الدار، محجبة أغلب الأحيان. حين سألها م. جاوبته أنها تريد خلعه، دون أن توضح لمَ لا تنفذ رغبتها رغم تأكيد أهلها أنهم لن يضغطوا عليها إذا فعلت.

أما إسماعيل الجالس على كرسيه الخشبي يتحدث مائلًا إلى مهند بجسده

المليء، فهو مثقف أكاديمي يدرس الدكتوراه في كندا عن الشأن البين-ديني في مصر، ويطمح أن يكون ناقدًا فنيًا واجتماعيًّا. ينتمي إسماعيل إلى جماعة الكانطيين الجدد، حيث الاعتقاد أن ممارسة الجنس في الخيال تكفي الإنسان. بجانب ازدواجيته الدينيّة (التي يراها تؤهله لدراساته الأكاديمية) فهو مزدوج الميول أيضًا، يحب الأولاد ويحكي بفخر أنه يطلبهم «دليفري» حتى البيت عبر شبكات سرية. تدرك بعد تقربك منه أنه لا يعرف حقًّا ماذا يريد، ناقدًا أم أكاديميًّا، ناشطًا أم ماجنًا برجوازيًّا، النساء أم الرجال، أم لا شيء على الإطلاق. لحظات الحماسة والعدميّة عنده تكاد تكون بلا فاصل، وحين تواجهه يعترف أنه لا يعرف ما يريد ويكتئب بشدة.

دار الحوار في الجلسة التي اتسعت حول عصام الموسيقي الذي يصطاد الناس على الإنترنت ليشتمهم ويسخر منهم بعنف كأنه مسيح مُخلِّص جاء العالم كي يحارب ما يسميه «تعريصًا». رأى م. أنه أيضًا له حساباته، فلا يشتم معارفه أو من يقدر على إيذائه رغم أنهم يرددون نفس ما يهاجمه. أضاف إسماعيل بحنق أن عصام يشتم بطريقة صبيانية رغم كونه خجولًا في الواقع، ثم استدرك في أسف مصطنع أنه في معظم الأحوال لديه كل الحق. علّق م. مؤكدًا تلك المفارقة ويمثلها تمثيلًا، محاولًا صنع تناقضه الخاص. «دكتور جيكل ومستر هايد» الخاص به.

استلم مهند دفة الحديث وحكى كيف كان عصام يتلعثم ويربش وغرق في ملابسه حين انهال عليه أحدهم بالشتيمة مازحًا حين عرف أنه

كان طالبًا في مدرسة فرنسيّة منافسة. وشرح بلهجة العليم أن مدارس الأولاد درجات وطبقات، فقبل وجود المدارس الاستثمارية كانت المدارس العربي الحكومية ترى طلبة مدارس العربي الخاصة مخنثين، والمدارس العربي الخاصة ترى طلبة المدارس الإنجليزية مخنثين مرفهين، والمدارس الإنجليزية ترى طلبة المدارس الفرنسية مخنثين مرفهين بلكْنَة، وهناك تقسيمات داخلية داخل تلك التراتبيّة تتعلق بمدى نظافة المدارس ومناطقها الجغرافية وقدرة طلابها وسمعتهم على خوض الخناقات، فترى عامة المدارس الفرنسية طلبة مدرسة عصام كمخنثين مرفهين بلكْنَة عِلقَة لا يقدرون على دخول عراك حقيقي، مما يدفع طلابها لمحاولات إثبات فرديّة في أي فرصة تكون مضمونة العواقب.

تدخلت تُقى وقالت إنها لا تفهم موسيقاه لكنها تحبها، فصاح ح. معترضًا بأنها خرائية وأيّده مهند موافقًا بحماس قبل قيامه ليجيب هاتفه بسرعة خارج غرفة المكتب. أردفت تُقى أن هناك من يستحق هذا التعنيف وأنها تشعر بالسعادة لما يفعله أحيانًا لكن في نفس الوقت تشفق على بعضهم لأنهم لا يستحقون منه ذلك.

جاء صوت مهند من وراء حائط الغرفة وهو يتحدث في الهاتف: «حبيبي، طبعًا أجيلك، أنا في مصر الجديدة ألريدي، أنا أقدر أفوت رؤية مولانا الموسيقار عصام برضو»، فضحك كل من في الغرفة. لحظات ودخل مهند ليقول في عجلة: «معلش يا جماعة أنا لازم أمشي جالي مشوار مهم

في وسط البلد» فانفجر الجلوس ضاحكين مرة أخرى وصدحت ضحكة سميرة المسرسعة تخترق سحابة الضحكات. وقبل تساؤل مهند عن سبب الضحك اقترح ح. على الجميع أن يخرجوا للغداء في أي مطعم قريب، فشتمه مهند لأنه لم يقترح ذلك إلا بعد أن طلع له مشوار.

إفطَار كُوزموبوليتاني

تقلَّب م. في الفراش ليشعر بجسد ما نائم بجانبه. فتح عينيه فوجد فتاة نائمة على بطنها يغطي شعرها الحالك جانبي وجهها. عدل وضعية نومه وحاوطها بذراعه وأغمض عينيه مرّة أخرى ثم أخرج ضراطًا صباحيًّا طويلًا. مرت دقيقتان كاملتان قبل أن يفتح عينيه على اتساعهما ويبتعد بجسده كأنه لسع من نار. خَبَط على كتف الفتاة وفضوله يفوق ذعره. لم تستجب فرفع كتفها بصعوبة ليظهر وجه سميرة مغمضة العينين وعلامات الفراش والوسادة على وجهها خطوطًا ودوائر حمراء غائرة. لم يدر ماذا يفعل فنادى عليها وزغدها في كتفها فهمهمت. بعد محاولات متكررة قالت دون أن ترفع وجهها عن الوسادة فبدا صوتها كأنه من بئر حلم عميق: «أنا سكرانة وخربانة وملقتش مكان أنام فيه». كل ما جاء في ذهن م. وقتها أن أمه ستدخل الشقة وترى سميرة في فراشه، رغم أن أمه لا تملك

مفتاحًا للشقة ولا يهمه حتى أن ترى فتاة معه في الفراش، لكن لكونه بين النوم واليقظة كان لا يزال الخوف الغريزي يسيطر عليه. فكّر سريعًا فيما يزعجه فاكتشف أنه منزعج لأنه لم ينم معها، فقال بصوتٍ عالٍ دون أن يدرك ذلك: «هي تهمة والسلام!».

رن الهاتف. رد بصوت ناعس:

«ألو».

«أنا خلاص قررت انتحر دلوقتي.. النبيت اللي بعمله في البيت بقالي 3 شهور مسكّر ومافيهوش ريحة الكحول.. أنا هاقطع شراييني بالعرض».

«تقطع شراينك بالعرض؟ دي غلطة بيعملوها الشباب كتير، تقطيع الشرايين بيبقى بالطول، عشان النزيف يبقى أسرع».

«مش مهم بقا يا عم هو لازم كل حاجة أعملها صح».

أنهى ميزو المكالمة فقام من السرير وذهب إلى ح. فوجد باب غرفته موصدًا. طرق ونادى عليه ليوقظه. بعد فترة طويلة جدًّا فتح ح. الباب قليلًا ووقف يستند عليه. سأله عمّا تفعل سميرة في الشقة أو بالأحرى في فراشه، فنظر له باستغراب وقال:

«سميرة؟.. سميرة مشيت إمبارح، إنت عرفت إزاي إن سميرة كانت معايا؟»

فرد م. في غيظ:

«بقولك صحيت لقيتها نايمة جنبي».

ردح. كأنه تذكر:

«آآه.. إحنا ضربنا جوينتين إمبارح من حتة الولا مهند الله يخربيته وخرجنا سكرنا ورجعنا حششنا تاني، الحتة كانت مكميكة فمودي قلب واتزربنت عليها واتخانقنا وأنا طردتها من الشقة، هي دخلت تاني وجت عندك إزاي؟»

سأله لِمَ يوصد باب غرفته مثل الفتيات في بيوت الطالبات، فقال إنه لم يفكر في غلقه. لكنه اعتاد ذلك كلما تشاجر مع أمه حتى لا تتمكن من الدخول إليه. تركه م. وهرول إلى الحمام وهو يغمغم «الله يخربيت أمَك» ثم أطلق «أحا» ممدودة حين تذكر أن عنده ميعاد بعد أقل من نصف ساعة في شانتيلي الكوربة مع كاتبة على الإفطار لأنه يكتب رواية عن مصر الجديدة ويرغب في محاورتها عن نشأتها بالمنطقة والاطلاع على روايتها التي تدور أحداثها فيها. هرول إلى الحمام وقام بطقوس الصباح على عجل ورجع إلى غرفته ليجد سميرة تحتل كامل سريره بجسدها الذي يقع بين امتلاء السمنة والأنوثة ليطلق «الله يخربيت أمَك!» أخرى.

***

(لو شانتيلي) من أجمل أماكن الإفطار في القاهرة، بلا زمالك بلا خرا. هكذا قال م. لنفسه وهو جالس في الحديقة المكشوفة في آخر الممر بالداخل. أشعة شمس لطيفة وخضرة تحيط به وهدوء بعيد عن ضوضاء الشارع.

شعر كأنه انتقل إلى عالم آخر. كان ينظر إلى قائمة الطعام وفي قبالته الروائية الأربعينيّة تأكل بالفعل: بيض وتوست وزبدة ومربى وعصير برتقال. وليّة مبالغ فيها، فكر مرّة أخرى. طلب لنفسه كلَاب ساندوتش مع كول سلو وبطاطس مقليّة. كما توقع كل ما قالته كان ترهات، لكنه لم يهتم، لأن كل ما يريده في الحقيقة هو نسخة من روايتها. بعدما انتهت من إفطارها طلبت فنجانًا من القهوة صاحبته بسيجارة سليمز كارتييه. حينها قالت له معلومة جذبت اهتمامه.

«إنت عارف الشقة اللي فوق فودافون اللي على الناصية دي، كانت شقة مكتب تحري خاص فرنسيّة، وبابا راح مع عمي عشان يلاقوا راجل نصاب نصب على عمي في مبلغ كبير واختفى وملقهوش في أي حته». لسبب ما شعر أن نطقها «فرنسية» بالفصحى مثّل ثنائيًّا منفرًا مع نظارتها الكبيرة ذات الإطارات السوداء المدببة كعين القطة.

شكرها في نهاية اللقاء على وقتها ونسخة الرواية والإفطار الذي صممت على دفع حسابه ثم ودّعها بحرارة. يحبّ م. الهدايا المجانيّة. أن يُمنح دون مقابل ولو أشياء بسيطة: سجائر، حساب على مشروب أو طعام، كتب، إلخ.. لأنه يشعر بالحب من خلال تلك الهدايا والهبات التي تأتي بسبب

شخصه فقط، كان هذا من بقايا الجانب الطفولي فيه.

انطلق يتمشَّى في الكوربة. لم يشعر بشيء. كان لا يزال أثر الإفطار معه لكنه لا يشعر بشيء تجاه المنطقة ولا الشوارع ولا البيوت. بقيت ثلاث ساعات كاملة على ميعاده الآخر مع سارة صديقته، لكنه لم يرد الرجوع للشقة حتى لا يتعامل مع سميرة، فجلس على قهوة أسوان وطلب حجر عنب وعصير رمان بثمن الإفطار غير المدفوع. يظن م. أنه لو كان أنثى لكان سارة، لذلك يحبها ويحب أن يساعدها، حتى أنه في مرّة عرض عليها أن يدخلا في علاقة.

بعد انقضاء ثلاث ساعات ونصف الساعة، شعر خلالها بالملل، جاءت سارة أخيرًا في هرولتها المرتبكة المعتادة، وبعد التحيات والأسئلة عن الحال عرضت عليه أن يهربا سويًّا. رد م. أن الهروب في مصر الجديدة مع بنت من غير دينه ولا يملكان مالًا كافيًا لأي شيء فكرة غير سديدة على الإطلاق. ردت بنفس البساطة أن كلامه مضبوط، ثم تحدثت عن صديقه ميزو الذي تحبه من طرف واحد وعن فيلمها الذي تريد صنعه، حلمها الكبير في الحياة، والذي لا تعرف مضمونه ولا كيفية صنعه، لكنه يوجد به الكثير من العواطف والجنس بمذاق لاتيني حارق.

وهما يتحدثان بعدها عن نصوصها القصيرة الجريئة والعنيفة الصادمة التي تكتبها بأسلوب شعري منطلق على مدونة سرية خاصة بها، ويحاول إقناعها بنشرها معه على شكل مجموعة قصصية يقوم بتحريرها،

هاتفه ح. معتذرًا عمّا حدث في الصباح وسأله متى يرجع لأنه يريده في موضوع مهم.

***

«أنا درست الموضوع كويس وإزاي هايتعمل، لو مش عايز تبقى معايا أنا هاعمله لوحدي».

قالها ح. وهو يتلفّت على كرسي المكتب الدوّار ساندًا قدميه فوق سطح المكتب ويمسك بتاب تتحرك على شاشته أشياء لا يراها م.

«أنا دعبست في زخانيق الدارك نت، وسجلت نفسي كمكتب تحري خاص، بيشتغل على جميع قواضي التتبع والبحث، والدفع 20% مقدمًا والباقي بعد الحصول على نتايج مرضي عنها، وفي حالة عدم الرضا أو تحديدًا عدم الوصول إلى نتائج مفيدة ومتماسكة بيتم دفع 20% تانية بس.. بحيث يكون المدفوع كله 40% من المبلغ المتفق عليه.. والزبون له السرية التامة اللي بتكفلها بروتوكولات الدارك نت نفسها».

أشعل سيجارة جديدة من سيجارته الحالية وأكمل:

«الدارك نت ياض يا م. هو إنترنت المستقبل... إنسى فيسبوك وتويتر وسناب-هجايص والحاجات دي».

سأله م. عن مضمونية الدفع فشرح له نظام الدفع ثلاثي الأطراف

الذي يكون بعملة *البت-كوين* بموافقة طرفين من الثلاثة. قال له م. إنه لا يستطيع أن يكون مفيدًا غير في حالة البحث على الإنترنت أو المهمات داخل مصر الجديدة فقط، وعليه هو المهمات خارجها. وافق ح. فبدا التحمس على م. وقال:

«النهاردة السبت، يعني فيه وجبة «أول يو كان إيت» في مطعم (تكساس تشيكن)، 66 جنيه وتاخد فراخ وبطاطس ورز بالخلطة وبيبسي وسلطة كول سلو وعيش وكل دا ريفيل، يعني ناكل لحد ما ندرمغ».

أبدى ح. علامات الاستياء على وجهه وقال:

«إنت مش ناوي تخس بقا.. إنت مش شايف وزنك؟.. عاوزين المزز ترف ياعم».

مع ذلك وافق على الفكرة لأنه يريد الاحتفال بتحقيق حلمه القديم أخيرًا. فتح صوت التاب على حجره في نهاية الحوار فصدرت أصوات صراخ وتأوهات عالية. كان فيلمًا جنسيًّا منزلي الصنع. النوع المفضل عنده والذي كان ضليعًا بكل جديد فيه.

الـحَدِيقة

جاءته الذكرى مرة أخرى في نومه؛ المُولد ملآن بالخلق والناس تقترب بخشوع، يهللون باسم والده صاحب البركات والكرامات. كان مركز الأبصار بالجلباب والعباءة على كتفيه صغيرة ومنقوشة بالبُني والرمادي وعلى رأسه خوذة حمراء كبيرة كالتي تُرتدى في السباقات السريعة، أصرَّ على وضعها رغم رفض رجال الطريقة، وتحتها طاقية ملونة بلوني الأبيض والأخضر موسومة بنقاط وأشكال صفراء لامعة. من الناس من يُقبِل يده ومنهم من يلمسه فقط، بينما يمر هو منتصب القامة وسط صندوق معدني أخضر يجره حصان، يلوِّح بيده اليمنى في الهواء بوقار للصفين حوله رغم سنوات عمره التي لا تتجاوز السبع.

هذه الذكرى الحُلميّة جعلته في المساء، وهو يتمشى وحده تجاه الكوربة متسكعًا ومستكشفًا المكان على الطريق الرئيسي حيث توجد آثار خط المترو

المنزوع، يستدعي أول لقاء لـه مع منطقة مصر الجديدة.

بعد انتهاء المجموعة التي اصطحبته إلى القاهرة من زيارة الأولياء وحضور المولد بالمقطم، نزلوا في بيت صديق لأحدهم، والذي حكى لهم كيف يذهب كل عام إلى السودان ليزور (سيدي الميرغني) ويجلس مع مولانا (فخر الدين) مثيرًا استحسان وغيرة ضيوفه. بعدها تبادلوا الحكايات والنوادر عن كرامات وبركات والدح.، كي يزداد حرجًا وخجلًا حتى خرج مندفعًا فجأة من الشقة في الدور السابع القابعة في ميدان (ابن سندر) بمصر الجديدة، ليعود فورًا إلى محافظته.

وهو مستغرق في ذكرياته تلك، وصل إلى منطقة (صلاح الدين) ولم يكد يعبرها حتى وجد على يمينه شيري تقف أمام محل ذهب. هذه المرّة بدون ابنها الصغير. في البداية انتقل إلى الناحية الأخرى من الشارع لكنه عدل عن قراره ورجع ناحيتها بعدما رأى أنها بمفردها بالفعل. ظل واقفًا خلفها حتى تلتفت، لكنها بقت تتمعن في المعروضات التي تشع صفارًا وبياضًا خلف زجاج الفاترينة. شعر أن وقوفه مدّة طويلة هكذا سوف يثير الانتباه والشك فنادى عليها بصوت خفيض: «شيرين». لم تستجب فنادى مرّة أخرى بصوت أعلى: «شييريين»، ثم طرق أصابعه بلطف على كتفها فالتفتت. بدا على وجهها الدهشة والتساؤل، فعرف -في إحراج ممزوج بوخزة صغيرة- أنها لا تذكره:

«شيرين، أنا ح.»

ابتسمت ابتسامة واسعة وقالت بطريقة غريبة وإن كانت أيضًا مألوفة على أذنه:

«آآآآه. ح. إزيك يا واااااد!»

بعد اندفاعها الأول تراجعت في خجل ونظرت للأرض ثم رفعت عينيها إلى وجهه تتطلع إليه:

«إزيك وإزي طنط وأخوك عُمر!»

رد بأنهم جميعًا بخير وأن أخاه مسافر، ثم سألها ماذا تفعل هنا، فقالت إنها تزوجت ولديها ابن عنده ثلاثة أعوام وزوجها أيضًا مسافر في عمل بالخارج. وجد ح. في نفسه الشجاعة أن يعرض عليها أن تأتي وتشرب معه شيئًا في أي مكان قريب في الكوربة. وافقت على الفور قائلة بصوت خفيض وهي تقطب أنفها إنها تحتاج بالفعل إلى الجلوس سريعًا لأن الحذاء ضيق وبكعب عالٍ.

قرر أن يذهبا إلى مكان شيك وغالٍ فعطف بها إلى بار (ذا جاردن). إذا اعترضت سيقول ليس من الضروري شرب كحوليات. بعد تمشية خمس عشرة دقيقة متهادية، تشاركا فيها ذكريات قديمة عامة وأخبارًا عن شخصيات مشتركة يعرفونها، وصلا للمكان الذي يقف على بوابته مسئول ومعه بودي جارد.

نظر مسئول الدخول إلى شيرين المحجبة في ريبة وسأل إذا قاما بالحجز

مسبقًا. نفى ح.. فأبلغهما الرجل أنه لا يستطيع إدخالهما قبل إتمام الـ«باك جراوند تشيك». وعندما سأله عمّا يعنيه، قال إن معناه الدخول على بروفايل الفيسبوك ليعرفوا من هما. زعّق ح. وأمره أن ينادي المدير. جاء المدير بالفعل على صوته فزعّق فيه ح. وقال له ما هذا الكلام الفارغ ألا يعرفون من هو! رد المدير في تواضع مدروس بابتسامة: «محنا عايزين نعرف حضرتك مين». أشار ح. تجاه ميدان الإسماعيلية وقال: «أنا ناشر محترم هنا ودي خطيبتي»، ولدهشته مرة أخرى في أقل من نصف ساعة وافق المدير على دخولهما.

اختار ح. الساحة المفتوحة التي تطل على الشارع الرئيسي، لكنه ندم سريعًا على اختياره حين شعر أن ركاب العربات والمارين في الشارع يمشون بجانب طاولتهما، بل إنه يسمع أحاديث ودردشات الجالسين على محطة الأتوبيس وحوارات سائقين الميكروباصات الخشنة والعالية أمام ناصية (درينكيز). حكت له شيري أمام زجاجة البيرة، وكوب الفراولة أمامه، عن زواجها بمحاسب يعمل في شركة قانونيّة بالخليج، وعن عنفه معها بجانب بخله وجفائه، وكيف أنها نزلت مصر وقامت باستئجار شقة في (الخليفة المأمون) بعيدًا عن صلف أبيها وسيطرته ولوم أمها ونكدها ليل نهار. أما هو، فبدلًا من أن يحكي لها بدوره عما فعله في حياته، وبدلًا من أن يمارس تفنجه وترفعه الذكوري الذي يعتبره جوهر سحره الخاص مع الإناث، وجد نفسه يقول إنه لا يزال يحبها لكنه لا يقبل على نفسه اقتحام حياة امرأة متزوجة، ثم أعلن في نهاية جمله السريعة المتتالية خضوعه التام: «شوفي الصح إيه وأنا موافق عليه». صمتت لفترة طويلة شعر خلالها

بالإحراج، قطعتها لحسن الحظ قائلة بهدوء وهي تثبت عينيها في عينيه: «أنا معاك مش مع الصح»، وابتسمت.

فور إعلانها الموحي هذا، وجد أمامه إسماعيل وبجانبه عصام. لم يكن يعرف عصام لكن يعرف شكله من الفيسبوك. سلّم عليه إسماعيل وعرّفه بعصام الذي ألقى التحية بأدب وحياء شديد وابتسامة ودودة وهنّأه على الدار الجديدة. قال إسماعيل نصف مازح إنه يعرف أن سبب فتح الدار هو توفير وكرًا للدعارة وأنه سيفضحه بالكتب التافهة التي ينشرها. نظر ح. إلى شيري ثم عاد إلى إسماعيل ليقول:

«أولًا أنا منشرتش حاجة أصلًا عشان تبقى تافهة أو عميقة... ثانيًا إنت مال أمك لو فاتحها وكر ولا زاوية».

ضحك إسماعيل متفاجئًا من ردة الفعل وهو يمسك بذراع عصام مثنيًا عليه، ثم بادر سريعًا بتهدئة وقع كلامه:

«لا لا أنا بهرج معاك والله ماتزعلش، محنا كلنا تافهين أصلًا وياريت مصر كلها تبقا أوكار هاهاهاها».

ردح. ببرود:

«وهو إحنا أصحاب عشان تهزر معايا؟»

اعتذر إسماعيل مرة أخرى واعترف له إنه «شارب شوية»، ثم دخلا إلى المكان المغلق وعصام يكتب شيئًا بأصابع نحيلة متوترة بسرعة شديدة،

وإسماعيل يتحدث إليه بغضب ووجهه مخضب بالحمرة والاستنكار.

هزح. رأسه برضا من استعراضه الذكوري الناجح الذي قام به للتو وقال لشيري بثقة: «خلاص إنتي تيجي تعيشي معايا إنتي وابنك» وقام وأخذها من ذراعها ليدفع الحساب، ثم خرج من المكان بعد أن رمى المسئول والبودي جارد على الباب بنظرة احتقار من أعلى لأسفل.

الـمصْيَف

«ألو».

«أنا هانتحر كمان ساعة».

«اشمعنى ساعة... وراك شغل؟»

«هاكتب الورقة».

«هاتكتب ورقة في ساعة؟!»

أغلق ميزو الهاتف دون رد. أكمل م. سيره صوب الكوربة ليقابل سنا. من صورها وتحديثاتها وتعليقاتها على الانترنت توقع أنها في بداية الثلاثينات. كانت دائمة التعليق عنده. حين طلب منها في ضربة عشوائية ملاقاته في مصر الجديدة فوجئ بموافقتها.

وصل م. إلى مقهى ومطعم الأمفتريون وجلس يشرب فنجان قهوة ويدخن في انتظارها. لم تتأخر كثيرًا. قصيرة القامة كطفلة، يجمع وجهها بين ملامح صبيّة وسيدة بالغة بشكل عجيب. سلّمت عليه ثم جلست بارتباك وأخذت تهز رجلها وهي لا تزال تحمل حقيبتها «الكروس» على حجرها. عزم عليها بسيجارة فترددت ثم أشعلها لها وأخذت تنفخ وتسعل. سألها عن عمرها فقالت «سبعتاشر».

قرر م. محبطًا أن يعتبر الموعد مجرد معرفة شخص جديد. لم تخيب سنا توقعه؛ كانت شخصية غريبة تتحدث بطريقة تبدو دومًا أكبر من سنها. حكت له أنها كانت في علاقة مفتوحة بشخص يكبرها بسبع سنوات لكنها انفصلت عنه لأنه أخفى عنها أنه كان ينام مع صديقتها، سألها لمَ قررت الانفصال والعلاقة مفتوحة بالأساس، فقالت له إنها لم تعترض على نومهما معًا لكنها ابتعدت لأنهما أخفيا عنها الأمر. سألها إذا قد نامت معه، قالت ببساطة: «لا، أنا منمتش مع حد قبل كده.. بس أنا مش فيرجن».

استفسر م. عن حل اللغز فقالت إنها فتحت نفسها بإصبعها عندما بلغت الثالثة عشر. لم يعرف إذا كان يشعر بالاشمئزاز أم الإعجاب فقرر أن يسألها عن السبب. جاوبت أنها رأت غشاء البكارة شيئًا سخيفًا ليس له لزوم. فكّر قليلًا واعترف أنه مرتبك من عنف الفعل في هذا السن الصغير، لكنه يحترم شجاعة القرار والتنفيذ. سألته هي بدورها عن علاقته بواحدة لها اسم أجنبي. ضحك وقال: «إيما زونز؟.. آه، أنا وإيما انفصلنا بشكل

حضاري وهي قتلت نفسها». ضيقت عينيها في عدم فهم للدعابة وقالت مستسلمة: «ماعلينا!». قال لها إنه في فترة من حياته كان يستخدم نفس اللازمة في الكلام، «ما علينا»، ثم غيّرها إلى «مش عارف»، سألته ماذا يستخدم الآن، فقال لها «مش عارف» فضحكا معًا.

في هذه اللحظة لم يرَ م. مانعًا أن يكون هناك شيء بينهما. وهو يفكر في ذلك قالت إنها ينبغي أن تعود إلى البيت حتى تتجنب غضب أهلها، رغم أن الساعة لم تتجاوز الرابعة، ومشت دون حتى أن تعرض دفع حسابها. امتعض بشدّة، لكنه عزى ذلك التصرف إلى صغر سنها.

دفع م. للجرسون مبلغًا فلكيًّا بالنسبة لمستوى المكان المتواضع الذي يعتمد على نوستالجيا هليوبوليسيّة يأتي الزبائن على إثرها لأنها معلم من معالم طفولتهم حين كانوا يأتون مع عائلاتهم في الويك-إند ليأكلوا الشاورمة والبرجر في ناصية الهواء المفتوح ويشربوا المانجة بينما يشرب ذووهم البيرة.

كان سيدفع لها على أيّة حال، لكنه أراد أن يوضح أنه قد عزمها. تراجع عن تفكيره هذا كله حين خرج من المكان ووجدها تركب التاكسي بجانب السائق وهي مرتدية حقيبتها على ظهرها كطفلة صغيرة.

تحرك التاكسي وشعر بهاتفه يرن. رد ليسمع صوت صديقته ميّ:

«ألو»

«تفتكر أنا هانتحر؟»

«انتحار إيه يا بت بلاش عبط أمال. أنا هاقلق على مين ولا مين بس.. قاعدين في أرابيز بعض بإذن الله».

«إديني سبب واحد إني ماموتش نفسي».

«بسيطة، عشان أنا بحبك وهازعل فشخ لو عملتي حاجة في نفسك».

«يعني إنت تمام إني أفضل عايشة تعيسة طول حياتي عشان خاطر إنت ماتزعلش إني مش موجودة؟»

***

كان م. مشغولًا بصب الرمل الأصفر الناعم في دلو صغير بجاروف بلاستيكي أحمر اللون، قابعًا تحت شمسيّة ملونة ورجلاه يحوطان كومة الرمال. في مقابله حوض مائي منفوخ على شكل سلحفاة، يعوم فيه ح. على الطريقة الكلابي وحول وسطه بطّة صفراء منقطة. كشّافات كبيرة تملأ المكان بالنور الأبيض الناصع، بينما تستلقي المانيكان «جيني» بجانب م. عارية الصدر، على رأسها نظارة شمس سوداء وكاب ورديّ، تستريح مجلّة موضة أجنبية على بطنها، وبالأسفل ترتدي مايوه أزرق كاشف.

سأل م.ح. لمَ يشعر بتلك الحساسيّة الشديدة من موضوع والده، فتوقف ح. عن السباحة وبصق في المياه. شتمه م. فاعتذر ح. قائلًا إن المياه دخلت

في أنفه وجاوبه أخيرًا:

«تخيل أصحابك في المدرسة يقولولك مولد أبوك إمتى.. ولما مدرس جديد ييجي يقولوله أبوه ولي وعنده مولد.. كنت ببقى في نص هدومي.. مرة عيل ابن قحبة فشّار في الفسحة قالي أبويا بيقول إن أبوك يوم ما مات طار في السما والناس كلها شافته».

مدد رجليه للخلف ممسكًا بالحافة. خفض وجهه داخل الماء ثم أخرجه ليقول بعدما نفخ الماء من جانب فمه:

«عمري ما حبيت الأجواء دي.. كنت دايمًا حاسس باغتراب عن الخرا ده.. يا عم الموضوع كان مهين قوي.. كل شوية حد يبصلك.. وكل شوية حد يوقفك يسألك».

سأله عمّا يتذكره أو يعرفه عن أبوه فقال إنه سمع عنه أنه كان رجلًا طيبًا جدًّا. عمل محاميًا واشتغل في الكثير من القضايا دون مقابل. وحين كان شابًّا كان يلعب الكرة في فريق المدينة الأول وأصيب بالرباط الصليبي. لم يجرِ العملية إلا في الجيش حين دخل التجنيد، وقتها كان الرباط الصليبي لا يزال اختراعًا. أضاف أن أخاه أيضًا عنده الرباط الصليبي، وقال إن ما فهمه عن أبيه أنه كان يصدق تلك الخرافات، لكنه حاد الذكاء وغير مدّعي، ثم أشار أن لديه أكثر من 30 جواب بخط يده كتبهم لأمه. «كان مشروع أديب والله...الوحيد من العوام اللي شفته بيكتب كده».

أعجب م. بتصنيف الناس إلى كُتاب وعوام وقال لـ ح. إنه ظهر مرّة على التليفزيون. استغرب ح. وسأله متى حدث ذلك. أمسك م. الخرطوم الطويل الموصول بصنبور بانيو الحمام وضخ المياه في ظهر السلحفاة حتى تغيرت كلها تقريبًا، ثم خلع قميصه الهاواي وقفز فطرطشت المياه طرطشة عظيمة في كل اتجاه ونقصت للنصف على الأقل. شخر ح. بينما ضحك م. عاليًا والتقط علبة صدفيّة كانت قريبة من حافة السلحفاة وأخرج سيجارًا كبيرًا منها وطلب منه أن يشعلها له، فأبلغه أن الكبريت قد ابتل بسبب غباء أمه. رد م. «خليك فريش إحنا في رحلة»، فهدأ ح. لأنه تذكر بالفعل أنهما في رحلة.

حكى م. أنه بعد الثورة طُلب منه الظهور في قناة ثقافية لمناقشة ديوانه الشعري الأول، وذهب بالفعل حتى وصل إلى ميدان عبد المنعم رياض، لكن رجله لم تطاوعه أن يذهب إلى المبنى الكبير الضخم ذي الخازوق المتدرج إلى السماء، فضل حينها ألا يتناول المهدئ ليكون ذهنه حاضرًا أثناء الحوار.

أخذ تاكسي ومسك في مقبض الباب. ضحك ثم أكمل كلامه: إنه قرر حينها في نفسه، إذا كان الاستديو في دور مرتفع سيرحل فورًا دون تفكير أو شعور بالذنب. عندما وصل وجد ممرات مصنوعة من الحواجز كثعبان ملتوٍ ذهابًا وإيابًا أمام الباب، وجنودًا يرتدون أقنعة ويمسكون برشاشات آلية، فارتبك أكثر لمّا تخيل نفسه يجري للخارج مفزوعًا فيطلق الجنود عليه النار ظنًا أنه قد وضع قنبلة وسط الناس وهرب.

مع ذلك، دخل بالفعل ووجد معدّة البرنامج تنتظره على الباب. المُعدّة شابة قبطية تشبه كثيرًا الصورة النمطيّة لمعدي البرامج في الأفلام والمسلسلات. سألته لمَ تأخر. أراد أن يقول لها «إحمدي ربنا إني جيت»، لكنه سألها وهو يعتذر في أي دور يقع الاستديو، فقالت الدور الخامس. فكّر إذا كان الدور عاليًا أم لا؛ في الظروف الطبيعية ليس مرتفعًا لكن كونه في مكان بعيد وضخم كهذا يجعله عاليًا. كان يقاوم بشدّة هلعه ورغبته في الخروج. أخرج موبايله يعبث به بأصابع متعرّقة وهي تشير إليه أن يتبعها للمصعد.

حين انفتح باب المصعد التفتت فلم تجده بجانبها. بحثت عنه في المكان لتجده يتجه إلى خارج المبنى. نادت عليه فوضع الهاتف على أذنه وابتسم قائلًا «لحظة واحدة». انتظرته في تململ معتقدة أنه يتحدث إلى أصدقائه لكي يروه على الهواء، لكنه كان يصطنع الحديث مع لا أحد لأنه لا يستطيع دخول أي مصعد بدون تناول دوائه. كان هذا كثيرًا عليه.

يضحك م. مرّة أخرى ويزيح المياه حوله بباطن كفه. يكمل الحكاية بأنه ذهب إليها ثم عاد ليقف بعيدًا أكثر من مرة حتى صرخت فيه أن يصعد حالًا. بدا واضحًا أنها شكت في قواه العقلية، ناظرة حولها كأنها تُشهد الناس أو ترى ردود أفعالهم على تصرفه الغريب. اعتذر بشدّة وقرر دخول المصعد وليحدث ما يحدث.

فور توقف المصعد اندفع خارجًا وهو يدفعها للجانب. نظرت له في

دهشة وانزعاج وتأكدت بشكل نهائي أنه مخبول. أما هو فوقف يرتعد ويشد في أطراف ملابسه حتى رأى سيدة خمسينية تقبل عليه يعرفها من وقت عمله في مجال التعايش الديني والاجتماعي قبل الثورة. ماما نجوى، هذا لقبها بالفعل. كانت خارجة من تسجيلها مبتسمة، ولما رأته أمامها سألته لمَ يبدو شاحبًا ومريضًا هكذا. رد محاولًا الابتسام إنه متوتر قليلًا فربتت على كتفه وقالت إنها تعرفه وهو «قدها وقدود». هدأ للحظات لكنه فزع مرّة أخرى حين عرف أنه سيظهر بعد 3 دقائق. كان يفكر في العذر الذي يمكن قوله إذا مشى من مكانه فجأة وسط البث الحي، وتخيل المنظر على الشاشة وهو يمشي فجأة وحجم الفضيحة التي سيسببها.

جلس في مكانه المفترض. قال له المصوّر أن يرفع ظهره، رفع ظهره ثم أخفضه مرة أخرى. أشار له المحاور أن يرفع ظهره مشجعًا فرفعه مرة أخرى ثم تهاوى. فجاءت المُعدّة تبلغه في نفاد صبر أن يرفع ظهره من أجل الكاميرات. ابتسم وقال لها إنه سيفعل. كان لا يستطيع الاستقامة نهائيًّا، بل أخذ يهز رجله في عنف شديد، فأشار له المُحاور أن يهدأ ولا يقلق.

بدأ التسجيل فخرج صوته مبحوحًا وشعر كأنه انفصل عن جسده من شدّة الرعب. يجاوب ببطء واختصار وهزة قدمه مستمرة والمحاور يشير له أن يرفع رأسه، وهو يهز رأسه موافقًا غير قادر على شد قامته ولو نصف بوصة.

قال م. لـ ح. إنه لا يتذكر مما حصل سوى أنه تحدث عن قصة من مجموعته

التي يكتبها ونُشرت في جريدة أدبية عن الإلحاد والإيمان، فارتبك المحاور. حاول سريعًا أن يشرح قصده بأن الملحدين أيضًا مؤمنين بمعنى آخر، وأن فهم ذلك سيساعد على التوافق المجتمعي وتطوير المجتمع والدين.

رفع م. بعض المياه في قبضته المغلقة وضغط بأصابعه السفلية كي تبقبق كنافورة صغيرة في الحوض البلاستيكي، وأكمل أنه بعد انتهاء التصوير شعر بغضب شديد من غباء إجاباته، وأن المحاور استغرب ذلك وقال إنه كان ممتازًا وأكبر من سنه، مما أغضبه حتى أكثر دون أن يعرف السبب.

المُعِدة القبطية المتعجلة على النزول كانت تتجاهله. سألها أكثر من مرّة عن رأيها فقالت بطريقة آلية سريعة إنها كانت حلقة جيدة. ود في سره وهي تخرج أمامه من ممرات الثعبان المتعرجة لو تحبه حتى ينكسر قلبها، في نفس اللحظة التي قرّر فيها ألا يظهر على شاشة التلفزيون مرّة أخرى أبدًا، بل ألا يخرج من مصر الجديدة بقيّة حياته.

علّق ح. على الحكاية بصوت محايد: «أديك بتصيّف أهو يا عم.. ولا كنت تحلم.. عشان تعرف بس إني وعدتك وإني بوفي وعدي». رش عليه م. بعض المياه بكف يده وقال: «أيوه مانتا الشمعدان يا روح أمك»، ثم استند إلى الحافة ونجح في إشعال السيجار أخيرًا ونفث دخانًا ثقيلًا وهو يمد ذراعيه يسندها على أطراف السلحفاة. صمت قليلًا يفكر. بعدها سأله بفضول: «صحيح... هو إيه إحساس واحدة أختها اغتصبتها؟»

سَـنَـا

على المعبد اليهودي المغلق بالشارع الجانبي كآبة الغلق؛ ترابٌ وسواد سخم التهجير غير القسريّ. أمام الباب شُرطيان جالسـان في تـراخٍ وعلى حوافه حروفٌ عبريّة مهيبة تمجد الرب. بعده، إذا انعطفت يمينًا، تجدً جامع (التوحيد) رغم ضوء النهار مُنيرًا، يجلس أمامه أصحاب المحال على كراسٍ بلاستيكية وخشبية وتزينه آيات بحروف عربية مهيبة تمجد الرب. تستدير مرة أخرى يمينًا، لتجد كنيسة (القديس كيرولوس) للروم الكاثوليك بيضاء كبيرة على الطراز البيزنطي، تأخذ موقع الناصية، وأمامها حواجز حديديّة وكشك حراسة فارغ، منقوش عليها حروف يونانيّة مهيبة تمجد الرب.

على الناحية المقابلة قهوة (السوايسة) العتيقة ذات الدورين، يجلس ح. و م. على رصيفها وصبي القهوة يشير لهما أن ينتظرا رؤية مزّة قادمة؛ لحظات وتمر أوروبية تلبس بندكور وبلوزة حمالات خفيفة، وبرفقتها شاب

مصري يبدي بإيماءاته الكثير من الاحترام المبالغ فيه، محاولًا التظاهر أنه لا يفكر مطلقًا في جسدها الأبيض النظيف البض.

سُميت الكوربة بهذا الاسم لأن الترام كان يأخذ منعطفًا عند هذه المنطقة حيث ينادي الكمسري «لا كورب»، قال م. هذه المعلومة لـ ح.. وأضاف إن مصر الجديدة ليست في الأصل جزءًا من القاهرة، بل أن البارون البلجيكي إدوارد إمبان فكّر، في 1905، في إنشاء مجتمع حضري جديد وسط صحراء العباسية بعد ثكنات الجيش البريطاني، على بعد حوالي 15 كيلو متر شمال شرق القاهرة، متأثرًا في ذلك بأفكار المدن الحدائقيّة التي ظهرت في أوروبا على شاكلة مدينة باريس وقتها، والتي بناها بارون آخر أيضًا هو البارون هاوسمان.

يشرح م. أن المقصود في الأصل أن تصبح هليوبوليس «واحة في الصحراء» تحتوي على أكبر فندق في العالم وعلى ملعب جولف فسيح ومضمار لسباق الخيل. وأوضح أن ذلك لم يكن سهلًا، فلم يكن الأمر يقتضي نقل الماء فقط، بل ونقل التربة أيضًا. أتى إمبان بالماء المعاد تدويره من محطات كهرباء في شبرا، أما التربة فنقلها من أراض النيل الخصبة.

بالأدق، يشير م.، كان المقصود إنشاء واحتين تفصلهما منطقة صحراوية، مخططتان على هيئة نجمة قلبها كاتدرائية البازليك التي دُفن في قبوها البارون عام 1929. كان باستطاعة المرء وهو واقف في الشرفة العليا لكنيسة البازيليك أن يرى أهرام الجيزة، ولذلك سُمي الشارع الممتد حاليًّا من البازيليك حتى

نادي (هليوبوليس) باسم شارع الأهرام. أضاف م. أن في ذلك الوقت كان يُسمع ليلًا في تلك الحدائق صرير الجنادب، أما الآن فالجندب يلهو حرًّا في شوارع القاهرة.

قاطعه ح.، ربما لأنه مل درس التاريخ هذا، وسأله لماذا لم يخضع إلى علاج لمشكلته. رد إنه بعد عام ونصف العام من العلاج بالتحليل النفسي نقلت المُحلّلة مكانها إلى الزمالك وطلبت منه استكمال العلاج هناك، فأخبرها بأدب أنه لو استطاع الذهاب إلى الزمالك مرتين أسبوعيًّا لحضور الجلسات فلن يحتاج حينها إلى الجلسات نفسها.

***

بعد ساعة كان م. في التاكسي في طريقه إلى مساكن شيراتون، ليجد سنا تتصل به وتبلغه أن درسها قد أُلغي، وهي الآن في (روكسي) وحرة، فقرر الرجوع.

وهما يتمشيّان في الكوربة عزمها على آيسكريم من (قويدر). اختارت هي نكهة القشدة بالتوت الأزرق وهو اختار النعناع بالفستق. كان كلما أعجب بفتاة وقرر مصارحتها، يعزمها على الآيسكريم.

تحدثا عن علاقاتهما السابقة وتناقشا في معنى الحب لكل منهما. قالت سنا بطريقتها المتذاكية التي تبدو فيها أكبر من سنها: «مافيش حاجة اسمها حب، دي حاجة الناس ألفتها عشان هما عاوزين يصدقوها».

شعر م. لأول مرة منذ مواعدتها بعمرها الحقيقي، وغالبه شعور بالانزعاج وقلة الصبر. ضحك وقال يستفزها: «يااااه.. إنتي لسه هنا!» وابتسم قاصدًا رسم ملامح الخبرة والحكمة على وجهه. ردت مجادلة، وسنا تحب الجدال وتشعر أنها خُلِقت لأجله، أن يأتي لها بدليل على وجود شيء ما يُسمى الحب، فرد بدوره أن تجلب هي له دليلًا أنه غير موجود. أصرّت أنه من السذاجة الإيمان بوجود حب أو الإيمان بأي شيء غير مادي أصلًا. أراد أن يهاجمها، لكنه ذكّر نفسه أنها لازالت صغيرة وعفيّة، لم يهدّها الزمن ولا البيولوجيا ولا الوحدة بعد، فتراجع، وقال في نفسه: على العموم إن لم يكن هناك حب فهناك جنس. سألها:

«إنتي عارفه إيه أحلى من الحب؟»

«إيه؟» لحست الآيسكريم بطريقة طفولية جعلته يتردد لحظة، لكنه أكمل:

«السكس.. جميل قوي.. جربتيه قبل كده؟».

كان يعرف من مقابلاتهما السابقة أنها لم تنم مع أحد، لكنه كان يمهد لسؤاله بعد إجابتها بالنفي: «تحبي تجربيه..» وأضاف بشكل عشوائي «دلوقتي؟».

وقفت تدرس الأمر لحظات وهي تزيح ننى عينها جانبًا، ثم قالت بصوت خفيض ووجهها مليء بالدماء: «ماشي»، وابتسمت.

اتصل بـ ح. وقال له أن ينزل فورًا من الشقة ولا يرجع حتى يكلمه.

شخر ح. وقال إنه بدأ الدخول في النوم. ألحّ عليه م. وقال إن هناك أحدًا معه ويريد الشقة ساعة على أقصى تقدير. شتمه ح. وقال إن عليه أن يتذكر الجميل الذي يسديه له الآن. فصاح في سعادة بصوت عالٍ «حبيبي!».

تزامن مع صيحة «حبيبي!» انفجار شديد، قفزت فيه سيارة خضراء زيتونية قديمة بالقرب منهما إلى أعلى في الهواء، وسط تحطُّم وتدافع ما أمامها وخلفها من سيارات وأشياء وبشر، وسقوط واجهة (قويدر) كأنها قناع من الشمع.

سقطت الواجهة بالضبط على رأس سنا وحقيبتها الكروس الخلفية وسبعة عشر عامًا من المجادلات وتحديثات الفيسبوك الذكية والصور المتكررة للبروفايل التي تبدو فيها أكبر من سنها و«ما علينا» و«القشدة والتوت الأزرق» و«ماشي» مخضبة بالخجل والحُمرة.

انطلقت إنذارات السيارات المحيطة في المنطقة تعوي في عنف معًا كأنها خائفة مرتعبة. وهو يقف مكانه مسمرًا رأى شابين على ناصية المحل المجاور المحطم يقول أحدهما للآخر: «يابني إسمع، هما صحيح باعونا في (محمد محمود) لكن هما في الآخر معانا ضد الحكم الفاشي الدكتاتوري السلطوي.. مش معنى إنك كنت هاتتئذي دلوقتي إنك تقرا الواقع غلط». فبدأ أخيرًا في السير حتى وصل إلى الشارع الرئيسي.

مُخدرات شعبيّة
من أجل آلهةٍ أنظف

الشوارع خالية كمؤخرة عانس. يقف في منتصفها والمطر يهطل على رأسه والشمس تشرق في عينيه والتراب يلوِّن ثيابه.

فكّر أن في هذه اللحظة يمشي شخصٌ ما بعيدًا عن هنا، نائيًا عن هنا، بدون خطط للرجوع، وهذا الشخص ليس هو. عَلَقت دمعةٌ بعينه فأصبح يرى الشوارع كأنها ثعابين ضخمة وراء زجاج حوض مائي، يتملكه إحساسٌ غريب بأنه كبر بالفعل وما ينظر إليه ليس إلا فيافي من الأحَّات.

أدرك فجأة أن ما حدث، قد حدث في البداية ببطء إله آسيوي ثم تسارع دون توقف إلى حد العبث، وأنه غير متحصن أمامه إلا بذاكرة مثل المُنخل لا يتبقى منها سوى الزؤان. أحس بغصة عميقة شاعرًا بالإهانة من تأكده

أن أشياء بسيطة يمكن أن تجعل منه شخصًا سعيدًا، لكن تلك الأشياء تبدو أيضًا في الوقت نفسه مستحيلة، وحين يمعن فيها، يراها تحتاج إلى كون كامل مختلف كي تحدث في بساطتها. أشياء بسيطة وفي متناول اليد لكن كأنه لا توجد يد أصلًا. شعر بنفسه عاجزًا ومشلولًا، مثل معظم الناس حوله، والأمر كله هو «من» يفعل «ماذا» كي يتعامل مع تلك الحقيقة.

نظر م. وهواء الخامسة صباحًا البارد يدخل جفونه، إلى شابين في نهاية العشرينيات يمسك أحدهما الآخر من كتفه.

يبدو على الأول التردد. يتركه وهلة فيصيح الآخر عاليًا طالبًا الرحمة والكَف. يمسكه مرّة أخرى بعنف متزايد. يسقط الثاني أرضًا ويبكي ويصيح ثم يقف طالبًا الرحمة والأول لا يدري ماذا يفعل. بدا في مكانة أقل وقد وجد في نفسه في موقف يستدعي أن تكون له اليد العليا. تكرَّرت الحركات نفسها على امتداد الشارع الطويل: يتراجع برهة ثم يرتد بعدها متحررًا من قبضة الآخر الذي يمسك به ويلكمه بغل، متأكدًا أن لا أحد يشاهده في هذا الوقت المبكر. يجري الشاب فيجري الأول وراءه صارخًا بأن يقف ثم يمسكه في غضب ليتراجع مرّة أخرى دون أذيته ويعيقه للحظات بذراعيه ورجليه، ثم يدرك لا جدوى ما يفعله فيتركه يسقط أرضًا، فيصيح طالبًا الرحمة كمُعذَب.

استمر الأمر حتى ظهر من الفراغ تاكسي أبيض وأسود قديم أشار له الشاب الثاني كي يقف. بعد توقفه للحظات واقتراب الشاب منه انطلق

مُسرعًا. جرى وراءه مستنجدًا بحرقة وقفز على الحقيبة الخلفية ممسكًا بحواف الزجاج والشاب الأول يجري من ورائه. التاكسي يزيد سرعته والشاب لازال يصرخ طالبًا العون والرحمة. يقف السائق فجأة ثم يعود لينطلق بصرير حاد مؤرجحًا السيارة يمنة ويسرة دون جدوى لبطء السرعة، فيزأر الموتور القديم بصوت عالٍ محاولًا الفكاك.

قرب نهاية الشارع يسقط الشاب أخيرًا على الأسفلت ممددًا على ظهره. يلحق به الأول. يرفعه من إبطيه ويكتّفه ويحاول المشي فلا يعرف. يجرب في حيرة أوضاعًا مختلفة ليضع في النهاية رجلًا خلف كل رجل وذراعًا خلف كل ذراع فيمشيان كأنهما إنسان واحد مزدوج.

حين اختفيا عند الزاوية رأى ح. يقبل عليه وعيناه لاتزالان غارقتين في بقايا النوم، ويسأله لمَ نزل وسط الليل وترك أشياءه بالمنزل. تذكر م. أنه كتب في مكان ما أن القاهرة مدينة لا يمكن احتمالها إلا بالمخدرات أو الأدوية، فرد أنه نزل باحثًا عن مخدرات شعبية من أجل آلهة أنظف.

الانتظار

مثل كرة بأرجل صغيرة -الهيئة التي تأخذها الكثير من الأمهات المصريات- وصلت أم م. إلى الشقة. يعرف م. أنه غاضب من أمه حين يغيظه في الشارع مرآى سيدة تمشي بخطوات صغيرة وبطيئة وتحمل شنطة أو كيسًا بلاستيكيًا بألوان مطفأة.

حين دخلت من باب الشقة كانت متعبة من صعود الأدوار الثلاثة. قالت مبتسمة وهي لا تزال تنهج أن هناك شخص آخر اسمه م. أيضًا ممتلئ مثله، لكن بدرجة أقل، يعمل مهندسًا استأجر شقة فوقهم، تزوج حديثًا من فتاه تدعى إيفيت ولديه سيارة حديثة جميلة مركونة أمام العمارة. قفز م. فوق هذه الحكاية وسألها إن كان هناك أمر ما. قالت إنها فقط تطمئن عليهما، كما تطلب منه جلب أخته من المطار، وأعطته مفاتيح سيارة أخته التي ترفض رفضًا تامًّا أن يلمسها في الأوقات العاديّة. وافق م. على مضض

معتمدًا على أن ح. سيذهب معه، لكن بعد رحيل أمه اعتذر ح. عن الذهاب معه لأن لديه مشوار مهم.

في الساعة العاشرة مساءً كان يرتجف من صوت محركات الطائرات المستمر حوله، ومن حالة الانتظار والرحيل التي تملأ أجواء المطار.

نزل إلى ساحة السيارات وصعد للمرة المئة حتى يخفف من حدّة توتره، وقد سيطر عليه شعورٌ غير منطقي أنه لن يستطيع الخروج من المطار أبدًا. وقف يستريح فرأى انعكاسه في البوابات الزجاجية واضعًا يديه في جيوبه فتذكر هذا الحلم المتكرر: شخصٌ على وشك الوصول من الطائرة لا يتذكر من هو، وكل مرة يصل لا يجد تذكرته، يحاول كل مرة التصرف بشكل مختلف لكن ينتهي دومًا إلى نوبة الفزع. كل مرة يتكرر المشهد نفسه لكن بتفاصيل مختلفة؛ لا خروج، دومًا على وشك الوصول، دومًا انتظار ووحدة وخوف.

تأخرت أخته ساعة كاملة في إجراءات الخروج نزل فيها وصعد من ساحة السيارات أمام الصالة مئات المرات حتى انهد من التعب وتعرق تحت جاكته الأزرق الثقيل.

وهو داخل إلى منطقة بيته القريب من المطار قال بصوتٍ عالٍ: «حمد الله ع السلامة». لكنه لم يكن يتوجه بها إلى أخته.

***

بعد أن صعد بحقيبة سفر أخته، نزل مرة أخرى ليرجع إلى الشقة. لاقى أباه يدخل من باب العمارة يحمل كيسًا بلاستيكيًّا قديمًا، حليق الرأس ويرتدي جاكت مضادًا للمياه بلون كاكي. بدا أقصر وأصغر حجمًا بوجه منكمش أشبه بوجه الصغار. لسبب ما شعر بالحزن الشديد.

طار هذا الشعور من رأسه فورًا حين بدأ أبوه الكلام؛ سأله إن كان يذهب للكنيسة، وأيّة كنيسة يذهب إليها، ودون أن يجاوب قال إنه لا بد أن يُصلّي، وإنه زاد في الوزن وسيموت بالقلب لأن شرايين القلب والمخ سُدت من الدهون، ثم قال، وهو يهز سبابته كأنه يهدده، ناظرًا إليه بحدّة: «أهم حاجة المحبة والطهارة وتمشي مع ربنا» ثم جز على شفته السفلى وكرر: «تمشي مع ربنا سامع!» وصاح غاضبًا فجأة: «المحبة، المحبة يابن دين الكلب».

لم يفهم م. قط كيف يتصور أبوه أن الحصول على الجنس شيء سهل لهذه الدرجة في مدينة مثل القاهرة. فهو، كما يذهب بيت شعر في قصيدة لإيليتيس، أصبح قديمًا من الانتظار.

حتى الشابة اللبنانية التي سكنت مؤخرًا تحتهما، في أول مقابلة معه على فنجان قهوة في المكتب قالت إنها لا تلمس الرجال -قالتها وهي تلمس يده- ولا تدخلهم شقتها -دعته لشقتها ليشرب شيئًا- وإنها محترمة لأنها من أسرة متدينة محافظة تعيش في أسبانيا، وأن أمها كاثوليكية من أصل روسي، -كان فيها شيء غير لبناني بالفعل، لكن أقرب إلى أصولٍ يونانية- لم يحدث

بينهما شيء رغم تقاطر «الرجال» يوميًّا إلى شقتها، بجدول صارم، حتى أنها تعاركت مع شاب طويل القامة بذقن محفوفة أمام مدخل العمارة لأنه أتى في غير موعده، وهو يقول بإصرار إنه يحبها ويريدها فقط أن تسمعه.

كل ما حدث أنها أرسلت إليه على الواتساب الساعة الثانية بعد منتصف الليل، تطلب منه الحضور سريعًا، فنزل إليها بعد أن غيّر البوكسر ووضع كيلوجرامًا من العطر ليجدها تبكي ممسكة بعلبة مناديل صدفية مُذهبة لأن الشاب الذي وعدها بالزواج اتضح أنه متزوج أصلًا.

حين رجع إلى الشقة وجد ح. يتحدث مع العميلة د. حول احتمالية الانتحار. بعد انتهاء الاتصال قام ح. من مكانه وتمشَّى في الغرفة جيئة وذهابًا مثل نساء إليوت، ثم قال وهو لا يزال يتحرك لـ م.: «صحيح، تعرف أن كلب جارتنا انتحر من الدور السادس».

انفجر م. من الضحك لأكثر من عشر دقائق. شعر بعدها بالذنب فصمت واختفت ملامح الضحك على وجهه. قال إنه بالطبع موقف مأساوي لكن هناك في الأمر ما يضحكه ولا يعيه بالتحديد، ثم قال إنه في الأغلب «أصحابه ولاد وسخة».

نفي ح. وقال إنهم في حِداد من وقتها وصوتوا وبكوا عليه. «الست أصلًا بصت عليه من فوق أول ما رمى نفسه وقعدت تنده عليه كتير.. دي كانت من أسوأ الحاجات اللي شفتها في حياتي». انفجر م. مرة أخرى في الضحك. فأضاف ح. متجاهلًا ضحكه أن صديقة سكندرية حكت له

إن كلبها في الإسكندرية كان يتصرف بطريقة طبيعية، لكن منذ أن جاءت إلى القاهرة قبل شهرين وكلبها يخرج صوتًا كأنه بكاء حتى وهو نائم ساعة الفجر، ولو استيقظ يستمر في العواء مثل الذئاب، وهي تحاول أن تلعب معه وتدير له الموسيقى بصوتٍ عالٍ دون جدوى، ولو كانت نائمة يوقظها متوترًا مهتاجًا. كادم. أن يقول شيئًا تعيسًا لـح. لكن قاطعه رنين الهاتف. رد:

«ألو».

«أنا من كتر الموود سوينجز بغير رأيي في أني آخد دوا 3 مرات في اليوم مثلًا.. أنا متلخبطة وحاسة إني بفقد شخصيتي وإني شخص شفاف.. I'm no one.. عايزة أكشن يخليني بني آدم ليه شخصية، أيًّا كانت إيه هي.. عمومًا أنا مش هوجع دماغي، أنا أصلًا بفكر في الانتحار أكتر ما باكل، أتعشى ولا انتحر، أتعشى ولا انتحر، أتعشى أحسن.. الحاجة اللي بتهون عليا إني متأكدة تمامًا إني كلها كام سنة واتجنن وخلاص..»

«نفس المستشفى العنبر اللي جنبي إن شاء الله.. تتجوزيني نفسيًّا طيب وأربيلك عقد الذنب؟.. من أول لحظة شفتك فيها وأنا حاسس بينا اعتماد مرضي..»

«بس ياض.. أنت كويس؟»

«مش عارف. ساعات بتخيل إن الحل هو إني أظبط عيال.. بس ولا فيه عيال ولا أنا شاذ..»

نظر إلى ح. بجانبه وقال بصوتٍ عالٍ:

«يا ريتني كنت شاذ يا جميل!»

حين أنهى المكالمة قال له ح.:

«فكرتني.. الأسبوع ده فيه واحد محتمل.. لو عملته هابقى سعيد لأن البت حلوة فشخ، مش لوني المفضل بس رقيقة أوي وممكن تنكسر.. حاولت معاها مرة قبل كده بس يظهر إنها خجولة أو متعرفش يمكن كانت مصاحبة... بس اليومين دول لقيتها على الواتساب بتكلمني، أنا اندمجت معاها، وهي أعلنت صراحة إعجابها.. عرّفتها من الأول، قلتلها مليش في الأماكن العامة، فهي قعدت يومين معصلجة وبعدين اتفقنا إنها هتعزمني على الغدا بس أكون مؤدب وأنا وافقت، ساعتها ربنا بيفرجها.. عزماني على بامية وفراخ يوم التلات الضهر».

في الساعة الرابعة صباحًا دخل عليه غرفته ثم جلس على سريره وأيقظه ليقول:

«البت طلعت مريضة نفسية، جيت أضيفها على فيسبوك وبقولها ضفتك، قالت لي أجّل الخطوة دي، قلتلها إزاي يعني، يعني أزورك في بيتك وأقعد معاكي ومش عايزة نبقى على الفيسبوك عند بعض؟ قالت أصل الفيسبوك للمقربين مني قوي، اللي أعرفهم من سنين».

رد م. ولا يزال النوم مسيطرًا عليه:

«ياعم تلاقي صاحبها عندها، أصل فيه ولاد معقدين فاكرين صاحباتهم بيخونوهم يوم التلات مع طبق بامية وفراخ، ماتعرفش إنت الأمراض اللي موجودة».

لم يلحظ ح. السخرية في إجابته وأكمل:

«الديب ميتعملش معاه كده.. السنجاب هو اللي يقبل وضع زي ده.. أنا قرفان.. نفسي أقابلها علشان بس أبصلها بصة احتقار». صمت قليلًا وأضاف باستنكار: «أنا ذئب!».

انتقامًا منه لأنه أيقظه من النوم قال م. في عناد:

«لا مش ذئب».

«عووووووووووووو.. شُفت أنا ذئب إزاي؟»

حظُـوظ

أمام محل (جاد) الواقع في قلب ميدان (تريومف) -سابقًا- وقف ح. وم. يأكلان سندوتشات الفول والطعمية حين نادى عامل أسمر برأس صلعاء على زميله قائلًا: «أنا رايح أصلي وراجع». بعدها، نادى زميلًا آخر ليقول له أيضًا إنه ذاهب ليصلي وراجع. وحين خرج اثنان من المخزن قال لهما نفس الكلام، ولمدّة خمس أو عشر دقائق أخرى أخذ يبلغ زملاءه إنه ذاهب ليصلي.

ظن ح. وم. أن العامل حريص على إبلاغ زملاءه حتى يقوموا بعمله أثناء غيابه، لكن مسئول بالمطعم خرج من الداخل وقال بعصبية شديدة: «فيه إيه يا حسين، إنت لازم تقولنا واحد واحد إنك رايح تصلي،.. محنا شايفين إنك رايح تصلي يا أخي!». ضحك حسين ضحكة من انكشف وتردد في حسم قراره: هل يبلغ زملاء آخرين أم يذهب فورًا كي لا يغضب

المسئول أكثر. زعق فيه المسئول مرّة أخرى: «ماتروح يا أخي الناس كلها عرفت إنك رايح تصلي خلاص!!» ورماه بنظرة غضب ممزوجة باحتقار وهو يبتعد.

لم يعرف ح. وم. وقتها أن حسين، الشاب العشريني من ميت غمر، سيكون له دور محوري في حياتهما الأسابيع التالية. لكنهما عرفا بعد لحظات أن حسين شخص محظوظ. ففور ذهابه للجامع القريب انفجرت سيارة مفخَّخة أمام المطعم نسفت مدخله تمامًا، وأطاحت بـ م. وح. وآخرين إلى عرض الشارع، ورافقهما، في رحلة الطيران، بقوس عالٍ، رضيع مُمزع، ليسقط في نهاية الرحلة على مَسيرة تهتف بسقوط حُكم العسكر.

بعصبية وقرف حاول كل من وقع عليه الطفل إزالة الدماء من ملابسه ثم ركلوه بعيدًا، ربما لأنهم ظنّوه كيس قمامة أو شيئًا عفنًا رماه أهل المنطقة عليهم، وأكملوا الهتاف بأن لا بد في يوم أن يعود النور حتى لو كان من الأجيال القادمة، وتناقش اثنان منهم حول الديموقراطية التي أتاحت لفصيل سياسي الفرصة للحكم وأن لا بد من احترام إرادة الشعب.

انفجرت قنبلة أخرى تحت من يتحدث لتمزقه أشلاء وتغرق من يحادثه بالدماء ليهز رأسه في اقتناع وهو يُخرج منديلًا من جيبه يمسح به جبينه ويقول: «صحيح...خلافنا معاهم سياسي» ثم أكمل مسح الدم من جوانب وجهه وكم قميصه وأكمل الهتاف مع الجميع في حماسة.

توقف أحد أعضاء المسيرة ليتحدث بصوت جهوري مع ثلاثة أشخاص

حوله على حافة صينية الميدان قائلًا:

«أنا أكتر تحررية منك لأني بسمح لقامعي الحرية ومجرمي الإنسانية إنهم ياخدوا فرصتهم.. وأدافع عنهم لو اتقمع قمعهم وإجرامهم.. متفتكرش إني مقتنع برأيهم، أبدًا... أوقات حقيقي بزعل منهم، وباخد على خاطري فعلًا.. لكن أضحي بكل شيء عشان يستمروا في المسار اللي اختاروه بناءً على موافقتنا..».

سكت قليلًا يستمع إلى أحد الأشخاص من الثلاثة قبالته ليكمل في نبرة أكثر حماسة:

«أنا شخص عقلاني وصدري رحب وأحب مراجعة الذات، خليني أراجع نفسي.. كل حاجة قلتها أنا صح، وكل حاجة إنت قلتها غلط.. إنت شايفني متناقض عشان بناقضك، وعشان تناقضك عاميك، مش معني إني أقول الحاجة وعكسها إني متناقض، أنا متسق تمامًا في إني ضدك وضد اللي أنت بتشتبك معاه.. أنا بسعى للخير العام للكل وليك إنت يا غبي يا متخلف يا جاهل رغم إنك ماتستحقش».

انفجرت قنبلة ثالثة كانت مختفية بين زرع الميدان أطاحت بالمتحدث ليسقط إلى جوارح. وم. في الناحية المقابلة من الشارع. كان لا يزال يتحدث وهو بلا نصف سفلي عن أن قبول الناس أو رفضهم للمسار الديموقراطي لا يهم في شيء فالناس معظمهم جهلة وأغبياء وعديمو الفهم وأهم شيء هو الإرادة الديموقراطيّة.

حاول ح. وم. الوقوف بصعوبة فساعدهما حسين العامل الذي جاء مهرولًا من بعيد على وقع الإنفجارات. سندهما حتى استراحا على السور نصف المتهدم للمطعم، وقال لهما إنهما يبدوان أولاد ناس وربنا يجازي أولاد الحرام، ثم أضاف في حذر إنه يعرف بيت قريب فيه مزز جامدة يستطعن أن ينسيهما ما حدث للتو.

رفع ح. وم. رأسيهما في وقت واحد، وسألا في صوت واحد: «فعلًا؟!» هز رأسه في إيجاب مؤمّنًا على كلامه ببسمة حنونة فرحة كأنه يبلغ أخاه الصغير بأنه نجح في الثانوية العامة بمجموع كبير. مشيا وراءه في اتجاه ميدان (سانت فاتيما) وهما ينفضان التراب والعفرة عنهما حتى وصلوا إلى عمارة عالية قرب الميدان، يجلس رجل بجلباب أمام بوابتها. نظر لهم الرجل مستفسرًا فقال حسين:

«قالوا: حرّص ولا تخوِّن، وقالوا: الجزاء من جنس العمل، وقالوا لأنيس منصور، وقالوا سلامًا، وقال المسافر في القصيدة للمسافر في القصيدة: كم تبقَّى من طريقك؟»

فرد الرجل السمين بجلبابه الضخم:

«طريقك أخضر».

دخل الثلاثة ووقفوا بجانب مصعد جانبي صغير الباب. سأل م. في توجس في أي دور يقع البيت، ابتسم حسين وقال له: «كُله تمام». سأله

مرة ثانية فرد أيضًا: «كُله تمام». فقال له إنه لن يصعد حتى يقول في أي دور تقع الشقة، فقال: «الحداشر».. وأشار بإصبعيه بجوار بعضهما وأضاف بابتسامة: «كُله تمام». فنظر م. في يأس إلى ح. وقال له في نبرة مستسلمة:

«لو عايز تطلع إنت اطلع».

ثم التفت واتجه ناحية الباب الذي دخلوا منه. فسأله حسين في استغراب:

«في إيه يا باشمهندس؟»

فرد م. وهو لا ينظر إليه:

«مبحبش الأدوار العالية».

وأكمل مسيره فقال حسين في سرعة بديهة:

«طيب إيه المشكلة أنا أعرف بيت دور أول.. بس بعيد شوية».

التفت م. في اهتمام وسأله:

«بعيد فين يعني؟»

قال له:

«في الخليفة المأمون».

اقترب منه م. وسأله في اهتمام أكبر:

«ناحية العباسية يعني؟»

رد:

«لا. القبلة التانية. ورا هارديز».

ابتسم م. ابتسامة واسعة وقال له بعفوية:

«أحبك في الله يا أخ...»

ابتسم حسين ببراءة ممتزجة بلزوجة وقال:

«أخوك حسين... بس المهم الأبيّج الجامد عشان المكان اللي رايحينه دا قطامية هايتس خالص!»

نظر م. إلى ح. يستفسر منه فتدخل ح. وقال:

«يالا بينا نتحرك بسرعة طيب».

خرجوا جميعًا من العمارة، وتحادث حسين مع البواب الذي يبرز كرشه العظيم من تحت جلبابه مهيبًا ببضع كلمات لم يسمعاها.

نسرٌ على ارتفاع مُنخفِض

لا يمكنك الاستمناء وأحدهم ينظر إليك. هذه حقيقة واقعة عرفها م. وح. ذلك اليوم.

أثناء ركوبهم التاكسي إلى الخليفة المأمون اندفع حسين بطريقته الحيوية في الحديث بالضحك العالي المستمر وإيقاع الكلام السريع في شتى الاتجاهات. يغمر حسين من أمامه بكثافة الحديث وسرعته فلا يعطيه فرصة للرد عليه، بل يستخدم محدثه لكي يتكلم عن نفسه وآرائه. فيسأله مثلًا محتارًا عن أمر ما، ليقاطع الإجابة ويطرح إجابة تخصه هو بحكمة ونباهة والتي يبدو من تدفقها إنه كررها كثيرًا مسبقًا، ليكتشف من أمامه أنه يستخدم الأسئلة فقط كذريعة لقول ما عنده.

كان حسين قصيرًا فيبدو وهو مُقبِل من بعيد كمراهق في الإعدادية، خصوصًا بمشيته العجيبة النزقة. يعوِّض صغر حجمه بتضخم كاريكاتوري

في الذات. من مبالغته في الكلام لا تستطيع إلا أن تستمتع به كعرض شائق. يقول عن نفسه بلا حرج إنه عبقري وعظيم، ساحر ألباب النساء، ثاقب النظرة السياسية ومحللًا استثنائيًّا للواقع، يشير بكلتا يديه إلى نفسه قائلًا إن النساء تذوب فيه لأنه وسيم وجميل الجسد. يشرئب عن كرسيه إذا وجد من أمامه أطول منه، مما يجعل م. طويل القامة أحيانًا ينزل في كرسيه ويحدب قليلًا وهو يتحدث معه كي يوفر عليه هذا المجهود.

نزل الثلاثة من التاكسي في شارع جانبي هادئ تظلله الأشجار أمام فيلا ببوابة حديدية كبيرة يقف عليها حارسان ضخمان بعضلات كبيرة تحت بزّات سوداء وسماعات للاتصال الداخلي على آذانهم. تقدم حسين الثلاثة وهو لازال بطاقم ملابس المحل، الفانلة الحمراء والبنطال الأسود والكاب الأحمر بالعلامة الصفراء الخاصة، تفرّس الحارسان فيهم بتجهم مثل قاضيين مرابطين على عتبة مملكة مُحرّمة. وقف حسين أمام الحارس على اليمين وقال:

«لولا الجهات، لكان قلبي هدهدًا»

رد الحارس بغلظة:

«لو كان قلبك هدهدًا لتبعته» وسكت كأنه لم يتكلم.

بادره حسين هذه المرة بسؤال بطريقة من يريد أن يعرف الإجابة فعلًا:

«وكيف نقفز فوق هاوية ولسنا طائرين؟»

نظر الحارس إلى م. ثم إلى ح. وجاوبه بعد تفكير:

«نغني: من يرانا لا نراه، ومن نراه لا يرانا».

هز حسين رأسه مستحسنًا الإجابة، ونظر لهما كي يدخلا معه. صاحبهم الحارس الذي يقف على اليسار للداخل وأشار بيده كي يصعدوا من سلم معين دونما كلمة.

عند دخولهم الفيلا نفسها، أشاعت مستويات الضوء الهادئة، والظل الموزع في المكان بلطف، ومساحات الفراغ المربعة بين الأثاث، الهدوء والطمأنينة في نفوسهم. زاد من هذا الشعور الهادئ ابتسامة العاملة الفلبينية البشوشة وترحيبها الرقيق بالإنجليزية كأنهم انتقلوا إلى عالم آخر.

بعد دقيقتين من الانتظار الصامت، نزلت على السلالم مدام كارمن في ثياب أشبه بثياب الساحرات في أفلام البورنو. ميلفاية مشدودة القوام في بداية الخمسينات. قال حسين بصوت هامس يغازلها:

«أرى نسرًا خرافيًّا، يحلق فوقنا على ارتفاع منخفض».

ضحكت مدام كارمن ضحكة رقيعة اختفت بنفس سرعة ظهورها وقالت:

«إنت هاتعملهم عليا ياض!».

بشّت مرة أخرى في وجهي ح. وم. وسألتهما عن رأيهما في عبد الله تيدي

بير وسيد تيدي بير الحارسين على البوابة، وأخبرتهما أنهما شقيقان لكن سيد يكبر عبد الله بسنة واحدة، وأضافت بفخر أنهما تربيا على يديها.

ألقت مدام كارمن نظرة سريعة عليهما بالشورتات والتي-شيرتات المرسوم عليها فريق لِد زيبلن وعبد الوهاب وقالت إنهما لذاذ قوي وزي العسل. أجلستهما بعد الترحيب على أريكة مُذهّبة في الريسبشن يتناقض ذوقها الفج مع بقية المكان شديد الفخامة والتناسق، وجلست هي على كرسي مُذهب أيضًا يسارهما وبادرتهما بسؤال من أين جاءا، فرد م. بأنهما من كفر عشري. ضحكت مدام كارمن وقالت بتنهد «أحلى أيام وأحلى ذكريات وأحلى ناس» ثم استرسلت في تذكرها:

«كوبري التاريخ.. نشأت نصير.. عادل عُمر.. حسين نصر حرامي الجمرك.. بط بلقاس والحاجة زبدة الفلوس والعز.. مستر نيازاكي.. ومستر كروميا.. ومستر نيازا.. ومستر شتاتا... جيسكا وأيام ما كانت بتتعلق ع البلانكو.. ناتالي العُقر والتحاليل اللي بتعملها.. عايدة بتاعت الكارنتينا الحرامية... المأوى وأم عبير وأم فايزة وأم كوثر».

كانت قد انسجمت تمامًا في تداعي الذكريات والأشخاص حتى نسيتهم تمامًا. تنحنح حسين وقال لها إن الباشوات تعرضا توًّا لحادث ويرغبان في نسيان ما حدث. ضربت يديها على صدرها بطريقة مسرحية وسألت بقلق واضح الافتعال:

«ليه كفاله الشر؟!»

ونظرت لهما كما تنظر طانط لأطفال أصحاب البيت. رائحة العطر النافذة منها والقوية جدًّا ثبتت عندهما هذا الإحساس. رد حسين:

«ولاد الحرام فرقعوا بمبة قدام المطعم اللي شغال فيه وهما كانوا واقفين وطاروا وقت الفرقعة».

مصمصت شفتيها في استنكار وقالت:

«ولاد الأحْبه.. مش عاتقين حد..»

ثم استدركت:

«بس مافيش غير واحدة بس اللي موجودة في الشفت المورننج».

فكر م. وح. داخل رأسيهما بسرعة هل من الأفضل أن يكون المرء الأول أو الثاني ومزايا كِلا الدورين، هل تنتظر للنهاية كي تعرف كيف تسير الليلة أم تتجنب قرف سوائل صاحبك وتدخل في البداية. كان حسين أسرع منهما فقال:

«ماتفرجينا يا ست الكل».

نادت مدام كارمن على سونا فنزلت من الطابق العلوي فتاة في التاسعة عشرة من عمرها. كانت عابسة وملامح الملل بادية عليها لكن جسدها مثالي المقاييس. قال ح.:

«على بركة الله..أنا هاخش الأول».

ضحكت مدام كارمن ضحكة رقيعة مجلجلة ثم قالت للفتاة وهما يصعدان «خلّي بالك عليه يا سونا دول لسه واخدين بمبة في وشهم».

حين صعدا للدور الفوقي دلفا إلى اليمين واختفيا عن الأنظار، التفتت مدام كارمن إلى م. وقالت له كأنها تكلم صبيًّا صغيرًا: «أهلا وسهلًا.. أولعلك قناة الكليبات تسخن نفسك؟» وغمزت بعينها وضحكت ضحكة رقيعة أخرى. شكرها م. وقال لها إنه تمام وأخرج موبايله يعبث به. بعد عشر دقائق نادت الفتاة مدام كارمن وقالت لها أن تبعث الآخر. استغربت مدام كارمن قليلًا لكنها بشّت في وجه م. وقالت: «يلا يا حبيبي».

صعد م. السلم ليجدها تقف في الممر تنتظره. أدخلته غرفة واسعة بفراش كبير وأثاث قليل مرتب جيدًا. كان م. متوترًا لا يعرف ماذا يفعل. نظر إلى وجه الفتاة فوجده جامد الملامح لا يزال على عبوسه. ابتسم لها ففكت عبوسها قليلًا فتشجع وتقدم وقبلها على فمها فأغمضت عينيها ومدّت لسانها تداعب لسانه. قادها إلى السرير وقبّلها على خدودها ورقبتها ومسك صدرها. فكت سونا العباءة الشفافة ليكتشف م. أنها بلا ملابس داخلية، رغم أنه كان يمكن أن يدرك ذلك من خلال العباءة التي تكشف جسدها المتناسق الرياضي.

تذكر أن ح. لم يخرج من الغرفة المجاورة وتساءل في سرّه عما حدث، لكنه نفض من رأسه التساؤل وخلع ثيابه وداعب قضيبه ليتمّم على وقوفه. مددت إليه بواقٍ فرفع كفه وقال باقتضاب «لأ»، وسألها إن كان عندها

مشكلة فنفت ثم نامت على ظهرها وفتحت رجليها ونظرت إلى السقف. حاول أن يدخل فهبط ذكره كأنه مصنوع من السلوفان. دعكه بسرعة وهو يشعر بالشهوة في عروقه لكنه وقف بنصف انتصاب فقط. حاول إدخاله فحدث مثل المرّة السابقة. تأفف بصوت واضح فرفعت رأسها وسألته إن كان هناك مشكلة. رد إنه لا يستطيع إدخاله، وأضاف جملة بدت له سخيفة للغاية بعد أن قالها: «مش عارف في حاجة مش شغّالة».

سألته دون أن تقوم من وضعها:

«بلو جوب؟»

وجد أنه اقتراح سديد. قعدت على رجليها وحاولت أن تدعكه كي ينتصب بالكامل لكنه كان يصمم على وقفته غير المكتملة. مد يده كي يوقفه بنفسه وقال مقترحًا:

«أنا ممكن أجيبهم على صدرك وخلاص».

كان يريد أن يقول على وجهك لكنه تراجع في آخر لحظة. ردت عليه:

«صاحبك قال كده برضو..»

شعر م. فجأة أنه في مدرسة وعليه أن ينهي واجبًا دراسيًّا ما حتى يتركوه يرحل. دعك قضيبه في سرعة محاولًا أن يقذف لكن لم يحدث أي تقدم. قامت بنفاد صبر وقالت:

«هاروح أشوف صاحبك عمل إيه».

فور خروجها من الغرفة ارتجف جسده الممتلئ العاري في نشوة صغيرة صامتة. ورد في باله إنه وح. كانا يمارسان الاستمناء في غرف متجاورة في نفس اللحظة، وأنه لا يمكنك الاستمناء وأحدهم ينظر إليك، وتخيل الفتاة تضرب كفًّا بكف بينهما في الممر، ففلتت منه ابتسامة.

مُغامرات شبابيّة

صمم المعماري البلجيكي إرنست جسبار فندق (هليوبوليس) عندما بلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا. صممه كي يحتوي على 400 حجرة أُثثوا جميعًا من خشب البلوط على طرازي لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر من باريس، إضافة إلى 55 شقة خاصة، وقاعات كبيرة تم فرشها بسجاد شرقي فاخر ومرايا تصل إلى السقف وعواميد ومدافئ رخامية من إيطاليا وأثاث من خشب الموهاجني من لندن وقبة القصر تصل إلى ارتفاع 55 مترًا في الهواء. صمم أيضًا جسبار سكّة حديدية خاصة بطول الفندق تعبر مكاتب الإدارة والمطابخ والثلاجات والمخازن وغرف العاملين.

أمام سور فندق هليوبوليس الذي تحول إلى «قصر الاتحاديّة»، كان م. وح. يعبران الشارع متخفيين في معاطف طويلة ونظارات شمسية، على رؤوسهما قبعات دائرية وفي أفواههما غليونات أبنوسية، حين سَمعا صوت فرملة وارتطام تلاهما صوت كلب يعوي بألم فظيع.

كان العواء جهورًا متواترًا يستنجد ويشتكي للا شيء. تقلصت ملامح م. وأفصح عن رغبته في الرجوع إلى البيت. أصر ح. على استكمال مهمة البحث والاستكشاف الميداني. وهما يتناقشان حول الرجوع أو التقدم، عبرتهما سيدتان ترتديان معاطف طويلة بنية ونظارات شمسية مثلهما، يتحادثان بلكنة فلسطينية في صوت خفيض. السيدة الأربعينية طويلة الشعر بخصل بيضاء من الأمام قالت لصديقتها النحيلة بشكل لافت: «طيزه قمر مات بانفجار في دولة من دول أوروبا الشرقية، بس كنا نتسلى وإحنا نراقب فيه». نظر ا م. و ح. لبعضهما وأخرج ح. بسرعة الآي- باد من حقيبته الجلدية المعلقة على كتفه وكتب تلك الجملة في حافظة الكلمات.

في نفس التوقيت تقريبًا، أمام البنك القريب على الناحية الأخرى، دارت عربة أتاري أكثر من مرّة ثم توقفت أمام مدخل البنك في النهاية. كان وقوفها غريبًا لأن المكان ضيق ولا يسمح بمرور السيارات بسهولة. فور توقفها نزل أربعة رجال يرتدون ملابس مدنية وترجلوا معًا كأنهم ذاهبون للقبض على شخص ما. لما وصلوا أمام ناصية البنك، توزعوا وهم ينظرون حولهم، واحد منهم عبر الشارع ناحية ح. و م.، وواحد منهم ذهب أمام باب البنك، واحد رجع بجانب البوكس، الرابع توجه رأسًا إلى عربة شيفورليه بيضاء مقفلّة من الخلف تركن في الصف الثاني. بدأ الرجل يجرِّب سلسلة مفاتيح ضخمة تضم مئات من المفاتيح بمنتهى البطء والحذر في الباب المجاور للسائق. الناس تروح وتجيء وسيارات تركن وأطفال يمرون مع ذويهم. لا بذلات واقية ولا خوذ ولا إخلاء ولا أي شيء.

قام ح. بسحب م. من يده ليبتعدا عن المكان. مشيا حتى وصلا إلى محطة البنزين التي تقع بين (روكسي) و(الخليفة المأمون)، ووجدا اثنين واقفين عند نهاية الرصيف المقابل عند شريط المترو القديم الخالي، يستندان إلى جذع شجرة بركب مثنية وفي يد كل واحد سيجارة، ينظران بثبات لامرأة كبيرة السن تخرج من عمارة ويتكلمان بدون النظر لبعضهما كل عشر دقائق ثم ظهرت سيارة دفع رباعي حمراء يخرج من فتحة سقفها ثلاث فتيات محجبات يرقصن ويشوحن بأيديهن على موسيقى مهرجان منتشر يتحدث عن العيشة الحرام في حرام. بعد مرور السيارة جاءت مكالمة لـ م.:

«أيوه يا ميزو».

«أوسخ حاجة في الدنيا إنك تقوم من النوم على وجع البطن.. أنا عملت إيه في حياتى عشان يحصل لي كل ده.. كسم حياتي.. أنا هانتحر دلوقتي.

«استنى شوية يا ميزو، نص ساعة كده، إنت لسه صغير..»

«طيب أنا هاخلّص الكتاب وانتحر.. اتبضنت فعلًا..»

«الكتاب هايوزع جامد».

«للأسف.. وماحدش هايزعل عليا.. هايهتموا بالكتاب ويكتبوا ريفيوهات..»

«لا بالعكس دانتا هتلاقي كل ابن كلب بيرثيك.. وكل حد معدي ملوش فيها يقولك أنا معرفوش وعمرنا ماتكلمنا بس حسيت إني أعرفه كإنه أخويا وهو كان قصده كده ونفسه في كده وليه ظلمتوا أجمل وأطهر من فينا..»

أغلق المكالمة والتفت إلى ح. ليقول:

«مازرتش بلد في حياتي.. مازرتش حتى مصر.. زرت بس مصر الجديدة مرتين.. دي المرة التانية.. المرة الأولى كنت معدي جنب بيتي القديم.. الروايح اللي طالعه من محلات الشارع خلتني أقصر كل خطوة.. من شخص بالغ لطفل صغير في لحظات معدودة...تخيل!»

هز ح. رأسه دون رد، فأكمل:

«أنا عندي معيار واحد للهزيمة.. ودا اللي بصارع ضده.. إن قلبي مايتمليش بالمرارة والحقد.. دي الحاجة الوحيدة اللي شايفها هزيمتي بجد.. كرامتي كإنسان جوه النقطة دي تحديدًا..»

رد ح.:

«زنزانتي لو أضيق، أنا من ورا السجان، في العتمة باتشعلق، حتى على الدخان».

***

لم تمر نصف ساعة حتى كان يضع عامل القهوة (كتكوت)، التي تقع أمام مطعم (أرابياتا) في روكسي، أكواب الشاي والقهوة والماء. اندلق كوب مياه على الطاولة وكاد يغرق تاب ح.، فشخر وصاح به أن يأخذ حذره. سأله م. إن كان حدث له شيء، فأجاب عامل القهوة بسرعة: «ياعم الجهاز لو حصله حاجة كان إتنى على نفسه زي تايتانك». أعجب م. بالتشبيه فسأل ح.:

«بمناسبة التاب صحيح.. إنت أخبار روايتك إيه؟»

أخذ ح. نفسًا عميقًا ونظر له كأنه سيلقي بيانًا:

«والله أنا عندي مشكلة.. أنا راجل بتاع فنشينج نضيف.. أنا كوكو شانيل الأدب.. الجملة اللي ماتضربش العصب بفاس حامي ماعرفش أكتبها أو أسيبها كده».

فهم م. أن ح. يغلق الحوار بهذه الجملة الاستعراضيّة فأنهى قهوته في صمت، ثم حاسب بعدها وتمشيا حتى سور حديقة (الميرلاند) يتابعان تحرياتهما في القضية الوحيدة التي جاءت حتى الآن. نظرا حولهما يدرسان المكان فوجدا أناسًا يتريضون في تركيز مُضنٍ، وعشاقًا من مناطق شعبية جاءوا إلى مصر الجديدة البعيدة كي يجلسوا على السور متلاصقين ومتشابكي الأيدي، وصبيانًا سمر يمشون بميوعة غريبة، فهما أنهم يصطادون زبائن السيارات التي تتهادى بجانب الرصيف.

اقترح م.، بعد فترة الصمت الطويلة، أن ينشر ح. روايته بالدار، فرفض وأبدى تصميمه على نشرها بدار كبيرة ذات اسم راسخ، وأوضح أن المشكلة ليست في دور النشر بل في قراره أن ينشرها بالأصل، فالرواية منتهية فعليًّا منذ عامين لكنه لا زال مترددًا، فكلما صحّح جزءًا بزغت نقطة ضعف في جزء آخر، وكلما مر وقت شعر بأن المشكلة تكبر داخله بأن هناك شيئًا ناقصًا وغير مكتمل.

بعدما أعلن اعترافه المتأخر غيّر مجرى الحوار وقال إنه حلم حلمًا غريبًا الليلة السابقة. كان م. داخل الحلم مع لينين، أو بمعنى أدق كان هو لينين، أو الأكثر دقة كان م. في البداية ثم تحول إلى لينين. الغريب في الحلم أن

م./ لينين قال كلامًا كان قد كتبه سابقًا في إحدى محادثاتها الممتدة ولم يكن مقتنعًا به، لكن لهيئته اللينينيّة المهيبة وجد أن الكلام له وجاهة. بعد سرد الحلم سأله:

«إنت عارف إيه أوحش حاجة في الفلوس».

«إيه؟»

«إنها بتخلص».

استكمل م. ما كان يقوله أمام فندق هليوبوليس/ قصر الاتحادية: «المغامرات الوحيدة في مراهقتي كانت عدد السندوتشات التي بتسابق بيها مع صديق الدراسة وقتها، لفة (أضواء العالم) أو (رأفت)، وبعدين قصب (العائلات)، وبعدين مقلي (العائلات).. الحاجة اللي بحس إنها خلتني بني آدم أحسن هي إني قريت شعر كتير في مراهقتي».

«دا عشان إنت عِلق».

«لا مش عِلق بس كنت مش ملاحق.. إنت عارف إن سرعتي في الأكل زادت وبقيت بخلص بعد ما الأطباق تنزل بوقت ميتعداش دقيقة أو دقيقتين.. ودا دايمًا بيسبب حرج للي معايا.. كمان هو إنت بروح أمك اللي مكنتش عندك حاجة مدمن عليها؟»

صمت ح. ولم يرد. كان صعبًا عليه أن يبوح باعتراف آخر كبير في نفس اليوم، لكنه حسم أمره أن يتخفف من بعض أسراره في تمشية الصراحة تلك:

«أنا كنت بتعالج من إدمان الترامادول والكحول.. تابعت مع دكتور

ياباني على النت.. أنا في يوم كده كتبت ورقة بلا أي سبب ولزقتها في الأوضة عندي.. كنت كاتب: أي مستقبل لك في هذا العالم يا ح.؟.. كنت كل ما أبصلها بشعر بحزن شديد.. القرار إتاخد خطف كده..». ثم أضاف كأنه ينتقم: «أما إنت إفضل إطفح كده وخليك زي البرميل..»

تضايق م. ووضع يديه في جيوب شورته الباجي تحت المعطف وسار صامتًا. اعتذر له ح. وقال بنبرة ودودة:

«تعرف، في الحقيقة من جوايا عايز أحب وأتحب... أنا هاشتري مانجة من الراجل اللي هناك داع الناصية وأكلها لما نرجع لعلّني أجد العزاء..»

رد م. في إحباط:

«أنا واكل علبتين آيس كريم كُبار الصبح ولسه ملقتش العزاء.. بس جالي إسهال.. أنا نفسي أبقى رفيع ورواياتي تخينة.. الرواية الضخمة بتهيمن بحجمها عشان دول بيغرهم الأحجام زي البنت الساذجة..»

«زبيرة في زمن عيرة والله... بقولك إيه، أنا زهقت من أم المنطقة دي، يالا بينا نمشي..»

***

قضى م. بقية الأسبوع في التحضير للقاء فاتن. الفتاة التي كانت عنده من وقت طويل على حساب الفيسبوك، لكنه لم يحادثها سوى مؤخرًا، واتفق معها بالفعل على الواحد المتين.

منع نفسه من الأكل تمامًا، باستثناء شرب المياه وبعض الخيار والجزر

كلما شعر بالدوار. نزل الجيم القريب كل يوم واستخدم المشاية وأجهزة الرياضة في البيت لأول مرة. كان يحاول يائسًا أن يخفض وزنه وكرشه المتدلي بسرعة حتى لا تنفر الفتاة وتهرب فتكون خيبته شديدة الوطأة.

في نفس الأثناء أبلغت شيري ح. أنها ستنتقل عنده نهاية الأسبوع. كان ينتظر كلاهما يوم الخميس دون أن يشيرا إلى ذلك.

ليلة الخميس عرف م. أن فاتن لن تأتي، ولن يكون هناك جنس، لأنها أصيبت بالبرد، أو هكذا ادّعت، ولن تستطيع النزول قبل شهر من محافظتها. هجم على الثلاجة يأكل كل شيء وأي شيء يقع أمامه، محاولًا ألا يفكر في الأمر. اتصل بثلاثة مطاعم معًا يطلب أشياءً سافلة كان يحلم بها الأيام الماضية من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع. أما ح. فعرف أيضًا أن شيري ذهبت «يومين» عند أمها ولن تأتي، فأخذ علبة المناديل واللابتوب ودخل إلى غرفته صامتًا.

انهمك كلاهما فيما يفعله بسرعة وتركيز.

الـجَاهِلين

اختفى ح. للمرة الأولى في يوم ثلاثاء.

صباح اليوم الذي اختفى فيه قام بعدّة اتصالات غير مفهومة لمطاعم عديدة مختلفة؛ يتصل ويصرخ سائلًا عن سبب تأخر «الأوردر»، فيسأله العامل عن اسم صاحب الأوردر فيعطيه اسمًا مجهولًا ويضيف: «قولي العنوان كده عشان أتأكد المرّادي إنه صح» ويدون في التاب العنوان الذي يقوله العامل. كرر الأمر تسع أو عشر مرات حتى توقف في النهاية راضيًا. بعدها قال لـ م. إنه سيقابل حسين في مطعم بيتزا ليبي في شارع عباس العقاد يعمل به بعد انهيار مطعم (جاد) ليسلمه الدولارات. لم يفهم م. شيئًا ولم يضف ح. على كلامه غير أنه سيتواصل معه في الوقت المناسب.

اختفى ح. للمرة الأولى وفكّر م. إنه يمشط الآن القاهرة بحثًا عن الواحد المثالي مستخدمًا تندر وبادو ووينشات وغيرها من التطبيقات. شعر بالغيرة

والغيظ. لكنه سرعان ما انشغل بظهور فتاة جديدة في حياته بدت لطيفة على الفيسبوك؛ مثقفة جميلة بعوينات وشعر طويل منسدل تدعى مروة، حصل على موعد معها ومع صديق مشترك على قهوة (أسوان) بالكوربة.

يوم الموعد لم تظهر. ولم يظهر الصديق المشترك، بل أغلق الصديق المشترك حسابه على الفيسبوك. ولم يعتذر أي منهما.

ضرب موعدًا آخر معها. ومرة أخرى لم تظهر. لم يعلّق وصرف نظرًا. أرسلت له في اليوم التالي كي يتقابلا بالغد، فوافق دون أن يذكر شيئًا عن الموعدين السابقين. قبيل الميعاد بنصف ساعة فتح الفيسبوك ليتأكد فوجد صورتها داخل بذلة غوص مع مجموعة من أصدقائها في مدينة دهب بسيناء.

قرر أن ينتقم بإعطائها موعدًا مضروبًا حين ترجع. أخذ معها موعدًا بالفعل بعد رجوعها في وسط البلد ولم يذهب ولم يسأل. لم تتصل أو تقُل شيئًا. تحوَّل الأمر معه في الأيام التالية إلى روتين؛ يتم تحديد موعدًا دون أن يتصل أحدهما أو يعتذر أو يسأل؛ فقط اتفاقات لا نهائية وتأكيد مكرر من الجانبين. حين مل من اللعبة قرر الرجوع إلى بيت عائلته.

***

عندما دخل غرفته شعر أنها أضيق قليلًا عن قبل. رأى قطته التي أوحشته كثيرًا تستيقظ وتنظر له كأنه شخص غريب. توقف مُسمَّرًا أمامها لأنه أدرك فجأة أنه لم يسمعها قط تتكلم ولا يعرف صوتها بعد سنوات من

العِشرة؛ لا يعرف فيما تفكر ولا رأيها فيه وفي الأشياء حولها، ولا ماذا تقول وكيف تشتكي في أوقات الضيق. بادلته «بسكوتة» أيضًا النظرات بعينيها الصفراوين في شك لأنه أطال التحديق فيها. ثم نونوت بصوت خفيض وخفضت رقبتها لأسفل، والتفتت خارجة بخفة وحذر من الغرفة. أكمل وضع أشياءه في مكانها القديم كحقيبة تتسع بالضبط للأشياء التي توضع فيها بشكل يومي ومتكرر.

في الصباح التالي استعد كعادته القديمة للنزول إلى القهوة القريبة أمام البيت. وهو يتجه إلى باب الشقة نادته أمه وطلبت منه أن يجلب معه «كيلو بطاطس» من الخضري وأعطته عشرين جنيهًا، وهو يتحرك نادته مرّة أخرى:

«استني، هاتجيب ايه؟»

«كيلو بطاطس».

«كيلو بطاطس وربع فلفل رومي وباتنين جنيه كمون».

«حاضر».

«استني، هاتجيب ايه؟»

«إيه؟»

«قلنا البطاطس والفلفل والكمون، هات معاك اتنين بصل، وكيس عدس أصفر وبـ5 عيش اسمر و5 أبيض وربع قرن الغزال».

«حاضر»

«استني يابني، مستعجل إنت عاوز تنزل القهوة تقعد وتتمرقع وتلطعني، قلنا هانجيب إيه؟»

«حاضر.. قصدي إيه؟»

«قلنا البطاطس، والفلفل، والكمون، والبصل، وكيس العدس، والعيش أسمر وأبيض وقرن الغزال،.. خليه نص، عاوزه أبل ريقي جنب الشاي، وهات معاك كيسين ملح عشان الملح هايخلص خلاص، وفوت معلش على بتاع السمك، لو لقيت السمك طازة هات اتنين بلطي نقليهم وقوله مايحطش الخلطة عندنا مرمية في الفريزر،.. وهات معاك بقى إيه، علبة جبنة صغيرة، أصغر حاجة عشان أختك تفطر وهي نازلة بكره، استني بس، وهات عيش فينو، أيوه، باتنين جنيه فينو.. لو هتاخد منه، هات بتلاتة، وكيس شيبس كبيرة وكانز بيبس، أنا مش عاوزة.. أنا أشرب أي حاجة، لو عاوز تجيبلي هات لو مش عاوز براحتك.. لا بلاش.. لو تجيبلي معلش إزازة بيبس، مابحبش الكانز، إزازة اللي هي صغيرة دي بتلاتة دلوقتي ولا أربعة، معلش لو مش عاوز تجيب ماتجبش، بس أنا مبحبش الكانز، وهات إزازة زيت بتاع القليّة، مش كريستال، بتاع القلية، وخلاص... وعلبة مناديل لو عايز عشان المناديل خلصت، لازم مناديل عشان السمك، آه والدقيق كمان، هات كيس دقيق، وهات معاك 5 بيضات، ولو هاتفوت ناحية المقلى عاوزه لب، آه نسيت.. وباكو الشاي، أصغر باكو شاي، أي

حاجة مش لازم الليبتون، بس هاتلي معاك لب، لو مش عاوز خلاص، بس أنا نفسي في لب.. واتنين كتاكيتو معاك».

«حاضر».

«معاك يكفي العشرين جنيه».

«نعم؟!»

«خلاص بقى كمل من معاك وأديك بعدين، منتا اللي بتاكل الأكل كله».

«حاضر».

«استنى احنا قلنا ايه؟»

«لا مش هانعيد من الأول أكيد».

«خلاص روح وهات الحاجات، زود بس ربع لمون عشان انت مابتحبش السمك من غير اللمون إنت وأبوك، أنا عادي ممكن ماحطش لمون، وهات نص قوطه معاك، ماترحش عند بتاع السمك خلاص أنا هاطلب بالتليفون».

«حاضر».

«قلتلك على البطاطس».

«أيوه قلتي».

«طيب هات شكولاته صغيرة لأختك مع الشيبس والبيبس».

«لا الفلوس مش هاتكفي».

«خلاص بلاش، بس أنا نفسي في شكولاته، لو مش هايكفي بلاش، أنا مش عاوزه، بس نفسي في شكولاته صغيرة».

«حاضر».

«وهات لأختك برضو».

«حاضر».

«خلاص كده، زود بس حاجة أخيرة».

«لا مش هازود».

«أنت كده ماتحبش تعمل حاجة في البيت ولا تساعد في حاجة!»

«أنا!»

«آه إنت، ولا عاوز تجيب ولا تروح ولا تعمل، قاعد 24 ساعة في البيت!»

«طيب قولي عاوزه تزودي إيه».

«الموز، هات كيلو موز ودا أنا هاحاسبك عليه، مافيش فلفل إسود بس مش مشكلة نجيب أول الشهر، آه وكيسين صلصة صغيرين، ماتجبش

برطمان، كيسين صلصة صغيرين بس».

«حاضر، حاجة تانية؟»

«ويمكن زماني يصالحني بعد العدااااوة».

«نعم؟»

«لا أنا بغني، ماتتأخرش، تعالي بدري عشان ألحق أعمل الغدا، متقعدليش عشر ساعات ع القهوة وإحنا نموت م الجوع، يا ريتني كنت أقدر أنزل أنا ولا الذلة والحوجة».

«حاضر..»

***

رجع بعد ساعة فقط لأن النت مقطوع في القهوة. كان يعمل على الرواية حين شم رائحة دخان. قام وفتح باب الشقة. وجد الجو مُعتمًا من كثرة الدخان. دخان كثيف أسود اللون.

وكأنه كان يستعد لذلك منذ الأبد، رجع إلى غرفته وارتدى الشبشب ورمى مفتاح الشقة في جيبه. صاح بهم «البيت بيولع، فيه حريقة»، ثم فتح باب الشقة ونزل على السلالم يحاول أن يتمالك نفسه من الفزع. كل دور يهبطه يظن إنه مصدر الحريق مقررًا أنه سيجري عبره وهو وحظه. لم يجد الحريق في الدور الثالث ولا الثاني ولا الأول. تقل المسافة بينه وبين مخرج النجاة.

رأى دخانًا وألهبة نار عملاقة تخرج من غرفة البواب تحت السلم. وصل للخارج وحاول التنفس بعد كل المحاولات الفاشلة في كتم أنفاسه خلال رحلة هروبه، والتي لم تؤدِ إلا إلى ابتلاع المزيد من الدخان الأسود.

لحظات ووجد أخته تخرج من باب العمارة. سألها عن أمه فقالت إنها وراءها على السلم. حاول الاستكشاف خلال الدخان الكثيف الخارج من المدخل قلقًا واللحظات تمر ولا تظهر. يلتفت إلى أخته ويسألها مرة أخرى. تقول وهي تسعل المفترض إنها قادمة خلفها. في هذه اللحظة تحديدًا تذكر أحلامه المتكررة عن إنقاذ أمه من الكارثة، كارثة يختلف مضمونها في كل مرة، وتتكرر بعد ذلك بدون ترتيب ثابت. شعر إن حلمه دخل حيز الواقع الآن، وجاءت اللحظة التي عليه فيها الاختيار بين الانتظار المرعب والشعور بالذنب لموت أمه بسببه، أو الدخول إلى قلب الخطر لإنقاذها، بنفس حيرة وخوف وانقباض الحلم متعدد الأشكال والسيناريوهات.

دخل مخترقًا الدخان مناديًا عليها. سمعها ترد بصوت فَزِع من الدور الثاني أنها بخير. صعد إلى الدور الثاني وأمسك يدها ليسندها، كان على استعداد تام أن يحملها فوقه ويجري بها لو كانت مشلولة الحركة بسبب الخوف، لكنها كانت تتحرك بالفعل، نازلة درجة درجة ببطء بكلتا قدميها كما هي عادتها، مستمرة في الصياح أنها بخير، وتقول أن أباه بالأعلى، فيقول لها إنه يستطيع التصرف، كان يصب تركيزه كله عليها. الحلم يتحقق.

حين اخترقا حاجز الدخان السميك ونجحا في الخروج، كان صدره

قد أغلق تمامًا. أثناء محاولاته استنشاق الهواء كي لا يموت قالت أمه إن أباه صعد إلى السطح وفي نيته القفز إلى سطح العمارة المجاورة. كان مطمئنًا عليه لأنه يعرف أنه يجيد التصرف، عليه التركيز الآن في جلب الأكسجين إلى صدره. الناس تصرخ، والسكان بملابس نومهم يقفون على أرض النجيلة في الحديقة المقابلة وعلى أسفلت الشارع. وهو يتحرك يمنة ويسرة يرى الناس يحاولون المساعدة بجرادل مياه وطفايات حريق. لا يستطيع التنفس وأمه تصرخ. الناس تنظر لأعلى. بدايات نوبة فزع. يحاول التماسك والتحرك بعيدًا. صدره يؤلمه. الحلم يتحقق. وماذا لو أنه في حلم؟ يريد الاستيقاظ. رعبٌ. أبوه فوق السطح. يمشي على الزرع. الزرع الأخضر وهو يتحرك فوقه مشهد متكرر في كوابيسه. أنهى المهمة التي قدم إليها وجاء وقت الرحيل. لا يستطيع الاستنشاق. صدره ثقيل ويؤلمه. أنقذ أمه. تصرخ. وجهها وملابسها ملطخان بالهباب الأسود.

وصلت سيارة المطافئ. انزاح الناس وصرخوا في الجميع كي يسمحوا بمرور السيارة. قفز رجلان يرتديان بذلتهما مفكوكة الأزرار بأحذية جلدية سوداء عادية. جريا في همة رغم سنهما المتقدم، وحاولا فك أسطوانة الخرطوم دون نجاح، هرع البعض يساعدهما، وحين أخرجا الخرطوم حاول واحد منهما فتح محبس المياه دون جدوى فجاء شاب وفتحها. توقع الجميع اندفاع المياه الثمينة التي طال انتظارها. لم تخرج سوى بصقة صغيرة. تبول طفل. قطرتين. ضرب المتفرجون كفوفهم وأزاحوا رقابهم في عصبية، قال لهما

أحدهم: «تحبوا نطلبلكم الإسعاف؟». وقف الرجلان بستراتهما المفتوحة على الفانيلات الداخلية وأخرجا لاسلكي كبيرًا جدًّا عتيق الطراز وقاموا بالاتصال والدخان الأسود يتصاعد من فتحات المبنى كأنه ذبيحة مهولة الحجم تحترق.

جاءت، بعد 45 دقيقة من بداية الحريق، سيارة الإطفاء الحقيقية؛ كانت سيارة أكبر وأحدث طرازًا، بها ثلاثة إطفائيين يرتدون زيهم السليم بطريقة منضبطة، كرروا الخطوات السابقة بحرفيّة، وبشكل ناجح هذه المرّة، وانطلقت المياه أخيرًا وسط تهليل الناس.

***

في اليوم التالي اتصل به صديقه إتش يعزمه على حفل زواجه الصغير في فندق ماريوت على أول طريق السويس. كان هذا زواجه الثاني.

الساعة العاشرة مساءً ركب التاكسي بالفعل بعدما قال للسائق وجهته. نظر له السائق للحظات، ثم فتح إذاعة (القرآن الكريم) ورفع الصوت بدرجة غير طبيعية.

كل دقيقتين كان السائق يستغفر ويحوقل ففهم مغزى الصوت العالي. جلس صامتًا يستمع إلى التلاوة تخترق أذنه حتى وصل للمكان بعدما دفع ضعف الأجرة لأن السائق صمم على نقله على الناحية الأخرى. اتصل بـ إتش الذي أبلغه أنهم في القاعة أمام بار اللوبي. لما دخل وجد المكان واسعًا

وهادئًا على عكس ما توقع. عثر على إتش بشعره الطويل المعقوص وذقنه المحفوفة يرتدي عوينات جديدة ويرتدي جاكتًا أبيض على جينز أسود وبجانبه صديقته بفستان أبيض بلا أكتاف وصديق ثالث نحيل بملابس خروج عادية. كان هناك نساء أفريقيات، ربما نيجيريات، يجلسن على البار بمؤخرات وصدور مهولة مثل آلِهة الخصوبة. يقمن ويمشطن المكان وهن عابسات وأقرب للقرف، يسألن الجالسين ويتحدثن معهم.

قام إتش وتحدث مع اثنتين منهن بإنجليزيته الطلقة، وضحك بصوت عالٍ وقال إن اليوم هو يوم فرحه وواصل الضحك، فنظرن له بعبوس أكبر وأشاحت واحدة منهن بيديها ونظرت أمامها إلى الساقي.

لما رجع قال لـ م. إنه طلب منهن أن يبتسما لأنه لا يريد أن يرى أحدًا عابسًا في يومٍ سعيدٍ كهذا، وحين طلبن منه أن يعزمهن على كأسين قال إنه يوم زواجه، وأضاف بغمزة لـ م. ولا حتى في يوم آخر. «أنا بحب السامبتيك زي مانتا عارف».

نصف ساعة وطلب منه إتش مصاحبته للخارج لأن المأذون قد وصل. وقف إتش وم. ينتظران في موقف السيارات لمدة عشر دقائق دون ظهور أحد. حاول إتش الاتصال في توتر وتعجل لكنهما وجدا فيزبا زيتونية اللون تدخل الموقف يقودها شخص يرتدي جلبابًا رماديًّا وعمّة بيضاء بجبة حمراء تحت خوذة وعلى وجهه نظارة سوداء.

أول ما نزل أشعل سيجارة وقال بالفصحى: «السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته» ثم أعقبها بنفس طويل من السيجارة وهو ما زال يرتدي الخوذة. صافح إتش ثم صافح م. وهو يقول من بين أسنانه: «إزيك يابن الوسخة».

نظر م. للرجل في اندهاش شديد. أكمل المأذون بصوت خفيض:

«معرفتنيش طبعًا لأنك فلاح وغبي وغباءك دا يا بني يسبب الوفاة المبكرة وأمراض أخرى لا يمكن الشفاء منها».

أدرك من صوته أنه ح. الذي أردف سريعًا:

«إوعي تشتمني قدام الناس أنا باشتغل مأذون.. يعني شيخ محترم». ثم قال بصوت عالٍ ليسمع إتش:

«يا ابني النصرانية دين ضال ومحرّف، إني أعظك أن تكون من الجاهلين».

قطّب إتش حاجبيه وقال بحدّة:

«يا شيخنا لزومه إيه الطريقة دي. عيب يعني الراجل جي فرحي يتهزق!»

كان يعرف أن إتش عصبي ويمكنه ضربه، فضحك وقال إن الشيخ يهزر معه. رد إتش أن هذا ليس هزارًا بل سخافة. وقال إنه لا يريد الإزادة لأنه يريد أن يتزوج هذه الليلة، لذا قرر الدخول. وهكذا ترك م. ليصطحبه للداخل.

«أنت يا ابن الأحبه هاتجوز الراجل إزاي؟»

رد ح.:

«أنا عامل لحد دلوقتي 9 جوازات ومطلق 7، أنت هاتعلمني شغلي يا نصراني يا كافر».

قال له إن اتش صديقه ولن يسكت، فقال له ح. ألا يقلق فهو يستعين أحيانًا بمأذون حقيقي في أوقات مثل تلك. سأله م. باستنكار أين سيجد مأذونًا الساعة الحادية عشرة، فقال له إن عقد القران أصبح فيه سواريه أيضًا وإنه نصراني حمار.

حثّه أن يكلّم هذا المأذون بسرعة وسيبلغ هو إتش أن الشيخ لا بد أن يرحل لحالة طارئة، فزوجته في حالة ولادة متعثرة.

بعد خمس دقائق خرج م. من قاعة الفندق ثم ركب مع ح. خلفه على الفيزبا الزيتونية التي انخفضت لأسفل وارتفعت مقدمتها قليلًا في الهواء فاعترض ح.، نكزه م. أن يخرس ويتحرك.

انطلق ح. للأمام فقال له إن هذا ليس الطريق، رد ح. «أنا عارف السكة.. اسكت!»

لم تمر دقيقة على الانطلاق حتى اصطدما في دوي مكتوم بعامود إنارة صغير موضوع في وسط ساحة مغلقة ومظلمة.

اِعوج الإطار الأمامي وخرج دخان من الفيزبا وشرارة كهربائية. نزل م. شاخرًا وشاتمًا:

«أنا قايلك يابن الوسخة إن دا مش الطريق، البوابة الناحية التانية».

خلع ح. الخوذة وخلع العمامة والجبة ثم هرش في رأسه وقال:

«إحنا لازم نمشي حالًا يا إلا هانتفشخ».

رمى أشياءه وخلع الجلباب، وجرى مع م. بتي- شيرت أحمر بخطوط فضية وجينز أسود «سلِم» إلى الطريق الرئيسي الدائري وأشارا لتاكسي أبيض مار.

ما أن ركبا حتى قال السائق: «إزيكم يا شباب». كان السائق هو نفسه حسين، مبتسمًا بلزوجته المعتادة وهو يمسك بصندوق خشبي صغير به خابور حشيش مربوط.

صاح م.: «يا أهلاااا...دا الجاهلين كلهم متجمعين هنا».

أن تَعبر الشارع مُغمَض العينين

«م. أنت تخين!»

سمع م. تلك الجملة وهو يقف عاريًا في صالة البيت الخالي. كانت لها طريقتها في قول الحقائق.

في الحقيقة هذا أول شيء سمعه حين خلع ملابسه لأول مرّة في حياته كي يمارس الجنس قبل عامين من تخرجه. كان في بيت صديق ترك له الشقة مدة جلسته الأولى مع طبيبه النفسي: جلسة مزدوجة بمقدار ساعة ونصف الساعة، وهناك ساعة أخرى للطريق ذهابًا وعودة.

نبّهه الصديق أن ينتهي من الأمر قبل رجوعه بعدما تأكد أنها ليست مومسًا من الشارع. لم يكن بالشقة سرير ولا أثاث، فقط مرتبة تخييم ملقاة في منتصف الصالة الفارغة وتمثال بجعة بقوائم معدنية طويلة في الركن القريب من الشباك. لكن رأى م. أن هذا كاف تمامًا.

ربما كانت هذه التجربة هي ما أنبتت فكرة دار النشر/ المُكنة في رأس م. أثناء حواراته الممتدة مع ح. التي بدأت على الإنترنت عن طريق الصدفة بعدها بوقت قصير.

التجربة التي نقلته من العذرية للرجولة – وأفقدته حاسه التذوق لعدة أيام كعقاب لا شعوري– وانتهت وهو يقف في الشارع يشرح لمَ لم يقذف مرّة أخرى. لتبلغه طالبة الطب النيمفو التي عرفها عبر صديق أنها هي أيضًا تأخذ دواءً مثله، لأنها تعاني من اكتئاب حاد ورغبة مزمنة في الانتحار، فيقول مشجعًا إنه أمر مقبول أن يستطيع اثنان يتعالجان الاستمتاع رغم ما يتعاطاه، لتوافق في إحباط، لكنها لا تنسى أن تضيف: حتى ولو بهذا المقدار القليل.

ابتلع الإهانات المصبوبة عليه إهانة تلو الأخرى من طريقتها الغريبة في الكلام، فهي لها طريقتها في قول الحقائق، وهو مرتبك لأنه لا يعرف في تلك اللحظة ما طبيعة علاقته بها؛ هي ليست صديقة ولا عشيقة ولا زميلة، بل شخصًا ما يراه للمرة الأولى ويعرف شكل عضوه الحميمي وكان بداخله منذ دقائق. ومنذ دقائق يتحادثان عاريين بهدوء وتلقائية، لتمسك هي بيده وتقبلها فيرتبك دون أن يفهم دلالة هذه الحركة، لكنه يحس بوخزة ألم لأن هذا ما كانت تفعله صديقته القديمة حين كانت تريد أن تقبله وتحجّمها العُقد والتربية المحافظة، ولأنه تذكر أنه كان يريد أن تكون هي أول جسد يدخله، يلتحم تمامًا به.

قبّلت يده بنفس الطريقة بالضبط: رفعت كفّه بين يديها وقربتها من فمها لتقبلها. واسى نفسه أنها كانت ستشهد أداءً هزليًّا، ووجيزًا أيضًا، فالأمر لم يكن سهلًا كما يبدو في فيدوهات البورنو، كأنك تقود سيارة –التي هي جسدك– للمرة الأولى.

راجع في ذهنه ما حدث حتى تلك اللحظة في الشارع. تجربة شبه ناجحة، بدون استخدام واقٍ، لأنه لم يستطع وضعه ولم تهتم هي بذلك كثيرًا: تقابلا في الشارع قريبًا من المكان الذي يتمشيان فيه الآن وسلما على بعضهما، كان واضحًا أنها قلقة وتريد التأكد أنه نفس الشخص الذي حادثته على النت وليس في الأمر خدعة أو فخًا.

حين اطمأنت وافقت على الصعود معه العمارة الكبيرة في شارع الثورة. استدعى مفارقة اسم الشارع وهو يصعد معها. بعد دخول المصعد والضغط على الزر رقم 5 اقترب منها وقبّلها في رقبتها فتلون وجهها ورقبتها الأبيضان بحمرة الشهوة. أكمل التقبيل بعض خفيف جعلها تتنفس بعمق وتتأوه وتعضه هي الأخرى في شفاهه ورقبته وخديه وهي تداعب صدرها بتهيّج غريب.

بعد أن استقرا أخرج من حقيبته بعض علب العصير وكيسيّ مناديل صغيرين. قالت مستنكرة: «أنت فاكرنا طالعين رحلة ولا إيه.. مافيش نبيت أو بيرة؟» ضحك في توتر وشتم نفسه في سره.

اقترب منها يريد خلع ملابسها فدفعت يده وقالت إنها ستخلع ملابسها

بنفسها. فخلع ملابسه وبقي بالبوكسر ينتظرها. حين رآها بملابسها الداخلية، كانت الدهون في جسمها تزيدها طراوة وإغواء. نظرت إلى جسمه وعلّقت على سمنته مستنكرة. ود لو يرد عليها أنها ليست مارلين مونرو، لكنه تراجع كي لا يفسد الأمر خاصةً أنها تبدو متردّدة.

أحاط وسطها الممتلئ واستمر في تقبيلها ولم ينسَ أن يهمس إليها كي يزيد شهوتها، واضعًا أمله في التكنيك لا الخامة. وجد نفسه يتحدث بالإنجليزية ولا يستطيع الرجوع للعربية، منعه خجله الشديد. وكانت هي أيضًا ترد عليه بإنجليزية ثقيلة. أدرك أنه من طول مشاهدة البورن، بُرمج على الحديث الجنسي بالإنجليزية، وربما تفعل هي مثله لنفس السبب.

أبلغته في حرج بالإنجليزية أنها مبتلة تمامًا، ثم طلبت أن يدير وجهه كي تخلع ملابسها الداخلية. ضحك وأخبرها أنها ستكون عارية تمامًا أمامه بعد لحظات. ضحكت بدورها في حياء وأصرّت أن يدير وجهه، فأدار وجهه جزئيًّا خوفًا أن تلبس ثيابها مرة أخرى وتهرب. خلعت بالفعل ملابسها التحتيّة ووضعتها في حرص فوق ذراع الكنبة.

وهو منهمك في إعدادها للدخول مجربًا أوضاعًا عديدة، فشلت كلها، سألته مستلقية على ظهرها قبل أن ترفع رجليها لمَ يبدو جادًّا هكذا وصامتًا، فأجاب أنه مُركِّز فقط، ربما لأنها أول مرّة. فور سماعها ذلك غادرتها الإثارة الشديدة، وتكلمت بنبرة عادية أقرب للاحباط: «متصورتش كده، توقعت العكس..». قالتها بالعربية.

لم يعرف هل يأخذ كلامها كمدح أو ذم. لكن حتى نهاية اللقاء تسللت في أدائها تلك النبرة الأخويّة المتفهمة. الأمر الذي أغضبه بعد ذلك حين استرجع الأمر في ذهنه مرّات عديدة.

لم يكد يدخلها حتى وجد نفسه لا يحتمل شبقها الشديد وتقلبها الملتذ العنيف كل مرة يدخل أو يخرج منها. شدّة صراخها وعلّوه جعلته يقذف وهو يترجاها بالإنجليزية أن تخفض صوتها كي لا ينفضحا.

حاول أن يدخلها مرة أخرى فرفضت وقالت إنها لا بد أن تعود للبيت، وتوصلا في النهاية لحل وسط هو مَص سريع فشل أن يقذف به، بل تعرَّق بشدّة من جسمه كله. فدفعته في يأس ثم أشارت له أن يدير وجهه لترتدي ملابسها التحتيّة الضخمة. لم يضحك هذه المرة بل ابتسم وقال إنه رآها بالفعل عارية أمامه. مع ذلك رضخ لطلبها واستدار.

بعد أن انتهيا من ارتداء ملابسهما، نزلا من العمارة وتمشيا قليلًا قبل ركوبها التاكسي. كانت لا تزال محبطة. أبلغته بطريقتها الغريبة القاسية: «أنا مضايقة إني ضيَّعت المشوار النهاردة». حزن في نفسه من الوسائل الملتوية الملعونة التي تتحقق بها أمنياته وانجازاته في الحياة. أضافت وهي تنظف عويناتها المدورة بمنديل قطني ووجه مكتسٍ بجمود كئيب: «الواحد زهقان.. عاوز يعمل حاجة جديدة أو ينتحر..»

«إنتِ ممكن تعدي الشارع وأنتِ مغمضة عينيكِ».

سعادةٌ مُخطَّطة

كتب ح. رسالة إلى العميلة د. يصف لها تقدم البحث والعثور على معلومات جديدة هامة في القضية تؤيد ما يذهبان إليه بأن هناك شبهة جنائية في الأمر. ردت فورًا تسأل عن التفاصيل.

كتب لها أن احتمال الانتحار مستبعد. لأن داليا ذهبت الليلة السابقة إلى طبيب أسنان، الذي تواصل معه وأكّد بالفعل الزيارة وختم تأكيده بتساؤل «هل يعالج أسنانه من يريد أن ينتحر؟». إضافة لذلك كان هناك حجز باسمها في مطعم يدعى «لا كونكور» عن طريق بطاقة إئتمانية لشخص يدعى باولو فيراري. لكنها لم تظهر بالطبع في الموعد.

في نفس الوقت تقريبًا وصلت رسالة جديدة على إيميل الدار من كاتب سعودي اسمه «عبد الله البزّوزي» يعرض على الدار نشر سيرته الذاتية مقابل 10 آلاف دولار على دفعتين، على أن تكون الطبعة 10 آلاف نسخة

فاخرة الطبع. قام ح. من كرسيه الدوار وأخذ يرقص في مكانه ولمّا استفسر م. قال إن ضربة العمر قد وصلتهما توًّا.

قضيا بقية اليوم في الاحتفال والشرب والأكل. وبعد الكثير من علب البيتزا وكؤوس البراندي وماتشات الفيفا والمورتال كومبات والستريت باسكت غفيا على الأريكة.

في قلب العتمة استيقظ م. ليشرب من ثلاجة المطبخ فوجد في طريقه حصانًا كبير الحجم يقف ساكنًا دون حركة أو صوت. ابتسم وربت عليه. ثم أخذ بطانية ملقاة على كرسي قريب ووضعها عليه. فكّر أن يجلب له بعض السُكّر من المطبخ، لكنه تراجع لأنه حدس بأنه حين يعود لن يكون موجودًا، ففضّل أن يظل معه يؤانسه في الظلام.

***

في اليوم التالي اخترع شخصية حسام نظمي.

حسام مهندس يعمل في شركة صيانة الشبكات بميدان (الحجاز). متزوج من نرمين الفقي. حسام ونرمين. نرمين تعمل في دبلجة أفلام السكس، ولا تنجب بسبب تكيّسات على المبايض، فكر م. أن يكون صدرها منفوخًا بالسيلكون لكنه شعر أن الأثداء الصناعيّة تعيسة مثل سعادة مُخطط لها. والدتها، حماة حسام، وليكن اسمها سُهيلة، تسكن قريبة منهما، وكانت تعمل في السابق صحفية كبيرة في الأهرام إبدو. بدأت طانط سُهيلة في إدمان

الحشيش عند سن الستين. عمرها الآن 65 وتنتظم على تدخين الحشيش يوميًّا بشكل مكثف لأنها ضمن برنامج طبي تجريبي يستكشف علاقة الحشيش بتأخير حدوث الزهايمر وضعف الذاكرة.

سبب وجود حسام نظمي في الحياة هو ضرس م.، ففي اليوم التالي صحا من ألم شديد في ضرسه. طبيبة الأسنان في عيادات مبنى الخدمات الكنسية المقابل في إجازة، ولم يجد غير عيادة الجامع القريب. لما سُئل هناك في الاستقبال عن اسمه جاء في ذهنه بعفوية «حسام نظمي».

الطبيب شديد العصبية لكنه يعرف عمله. حين سأله ح. بعد ذلك لِمَ لم يقل للدكتور اسمه الحقيقي، قال إنه لم يكن ليحتمل لحظة الصمت التي كانت ستلي إعلان اسمه الحقيقي. فقط عليه أن يبقى منتبهًا أن اسمه حسام حتى تنتهي جلسات المتابعة وزرع العصب وتركيب الطربوش، والتي كان يسأله فيها الدكتور عن اسمه ليبحث في أجندته الخاصة، فيتردَّد ويتلعثم ليصيح فيه: «مش فاكر اسمك!»

كونه أصبح حسام نظمي لبعض الوقت، أي وقت ذهابه لمواعيد الطبيب في الجامع، بروشتات وإيصالات مطبوع عليها هذا الاسم، جعله يدرك أن هناك فرقًا بينه وبين اسمه الفعلي، إنه مجرد اسم اعتباطي له. لا يخصه. أو كما فكر «لا يلتصق بلحمه». هو مجرد تكوين حروف تقال من قِبل الآخرين كي ينتبه وكي يتم التعامل معه في الأوراق والكشوفات.

هذا الأمر أثار شعورًا بالقلق داخله لأنه أدرك أنه كائن بلا اسم. بلا هوية. وهذا الكائن ليس إلا مجموع رغبات وأفكار ووساوس. وفي تسلسل الأفكار خطر بذهنه أن عاطفته المحتدمة ليست إلا غطاء لعدمية بلا لون، كأنه يؤكد لنفسه أنه يحب الأشياء حتى لا ينكشف أمام نفسه أنه لا يريد شيئًا ولا يحب شيئًا، فلا يكون شيئًا. كان يراوغه هذا الشعور بالفراغ المقيت في لحظات تمتد من دقائق إلى ساعات، وتسبِّب له قلقًا شديدًا لا يعرف كيف يهدئه. كان الحلّ الذي اكتشفه مع الوقت هو الاستمناء، إلا أنه كان يتألم في بداية استثارته الذاتية لأنه كان يشعر أنه لا يريد حتى الجنس، كطفل لم يبلغ أو عجوز بردت أعضاؤه، ويفكّر في وسوسة كيف سيواجه ذلك العدم بعد لعبة الاستثارة الذاتية والتفريغ التي تمتد فقط لبضع دقائق.

بعد أن استمنى وبجانبه الروشتات والإيصالات، جاءت «بسكوتة»، التي جلبها من بيته تاركًا مع أهله «بلانكو» القط الذكر الأبيض، وجلست على صدره. لا تنتقي بسكوتة مكانًا عشوائيًّا بل تموضع نفسها على القلب وتتكوم في نفسها ناظرة لعينيه القريبة منها مدة لحظات ثم تغمض عينيها تدريجيًّا لتنام مُصدرة تلك الحرارة من جسدها وخرير داخلي كموجات موتور صغير. لا يعرف م. لماذا تختار القلب بالذات. هل تعتبره مركز الجسم فمن المنطقي الجلوس عليه؟ أو لأنه دليل على أنه تابع لكائن حي مثلها فهو إذن المكان الصحيح؟ أو ببساطة لأن هذا المكان فيه دغدغة منتظمة تساعدها على الاسترخاء ومن ثم النوم؟ المهم عنده أنها أعطت

معنى حرفيًّا لتعبير «مستربع على قلبي»، ومعنى حقيقيًّا أيضًا لـ «من القلب للقلب» لأنه كان يشعر بضربات قلبها الصغير في صدره.

لم تكد تمر بباله تلك الخواطر حتى وجد ح. يدخل مندفعًا لتفزع القطة وتقفز مبتعدة. غضب م. وصاح به: «مالك داخل عليا زي أمير لاي الأحّات السبعة كده ليه؟»

«لقيتها، لقيتها ياض».

«هي ايه يابن الكلب؟»

لم يبلغه بما وجده لكنه قال إن هناك أمرًا واحدًا ليتأكد تمامًا ثم يقول له كل شيء، ويبعث بالنتائج إلى العميلة الفرنسية وتنتهي أول قضية لهما بنجاح ساحق.

***

في هذه الأثناء تقرّب م. من بنت مسيحية تدعى ميريت، تعيش مع أهلها بجانب ميدان (تريومف)، كانت تذهب لنفس كنيسته في السابق. تقابلا مرتين بعد تواصل على الفيسبوك بدأه م. بعد مرور أعوام على تلك الفترة، كنوع من التجربة العشوائيّة.

بديا متفاهمين. لذلك وهو ينتظرها للمرة الثالثة بعث لها رسالة على الموبايل «المكان معلقة وأنت شهد يا جميل». أما هي فجاءت معتذرة لتأخرها

وهي تضع إصبعها في أذنها ترجه بعنف وتميل برأسها لأسفل. قالت له إنها أخذت حمامًا منذ قليل وإنها لم تكن لتأتي لأن مزاجها سيئ، لكنها تشجعت نهاية الأمر ونزلت. من أول مقابلة تكلما معًا عن الزواج وفكرة الزواج بين المذاهب المختلفة، الزواج من نفس المذهب، الزواج وما يفعله الكهنة، الزواج المسيحي والطلاق، الزواج والإنجاب، الزواج والفردية، الزواج والتعليم، الزواج والجنس، الزواج والشذوذ، الزواج والمصاريف، الزواج والماديات، الزواج والسياسة، الزواج واختلافات الطباع.

في المقابلة الثانية حكت له تفصيليًّا عن علاقتها بصديقها السابق القديم ثم خطبتها للآخر مدة عامين وبعض العلاقات العابرة الأخرى. قرر أنه قد وجد أخيرًا مواصفات قريبة جدًّا مما يريده، ويردد لنفسه مرارًا أن عليه أن يفكر بعقله ويخطط لسعادته ولو لمرة واحدة في حياته. وهي، على كل حال، شابة لطيفة وجميلة وغير «مزيِّتة» كما كان يقول دومًا على القبطيات المتزمتات.

بعد المرور على المواضيع العادية والدردشة قال إنه يريد أن يفاتحها في موضوع، وبدأ الكلام الذي رتبه جيدًا عن وضعه الحياتي وكيف ترك مجال الهندسة التي لم يعمل به قط، وعن أحواله المادية، وعن رغبته في الزواج، وعن مشاعره التي بدأت تنمو ناحيتها، وهي على وجهها نفس الابتسامة الثابتة. أكمل أنه وجد انسجامًا بينه وبينها ويريد الارتباط بها، فضحكت بشكل مبالغ فيه.

قالت بعد انتهائها من الضحك المطوَّل إنه من اللطيف أن يفكر بها، وإنه شاب ظريف الشخصية وعقله كبير وأن بينهما توافقًا في الأفكار والآراء، لكنها لا تفكر في الزواج حاليًّا. رد أنها قبل مقابلتها الأولى منذ أسبوع قابلت عريسًا له نفس اسمه، وسخرا معًا منه، وأن هذا دليل على أنها تريد الزواج. قالت إنها لا تعرف لكنها لا تريد توريطه، فهي تخاف أن تجرحه. بدا له أن الكلام غريب على سياق المقابلتين السابقتين شبه الرسميتين، فسألها لم إذن يتقابلان كل يومين أو ثلاثة ويتبادلان كل هذه الرسائل والمكالمات التي تطول لساعات على أشياء تافهة -لم يقل لها بالطبع وصف تافهة- فقالت إنها تصورت أنهما متقاربين فكريًّا لذلك يمكن أن يكونا أصدقاء. رد أنه لديه العديد من الأصدقاء ولا يحتاج صديقًا جديدًا بل يحتاج شريكة. اعتذرت طالبة منه ألا يغضب، وأنها تحب أن تكون صديقة له.

حاسب وصاحبها إلى سيارتها. وهي تهبط بجانبه سلمًا صغيرًا تابع لسوبرماركت بجانب القهوة، ارتمت على ظهرها وانتفخت بطنها مثل بالونة كبيرة، وفردت ذراعيها ورجليها كقتيلة وهي تمسك بحقيبتها وتصرخ عاليًا: «عندي القولون العصبي يابن الكلب!».

مَسَاءات الكَاري والفُلفل

كان م. وح. يتشاكيان بسبب نقص المال المستمر. مع ذلك، لاحظ م. أن ح. يصرف بأريحية وبشكل متناقض؛ يحمل مثلًا هم توفير خمسة جنيهات في المشتريات ليصرف في أوردر طعام 150 جنيهًا في نفس اليوم. يتوقف عن شرب المياه المعدنية كي يوفر 3 جنيهات، ليشتري بعدها بـ 200 جنيه أدوية برد وصندوق مياه معدنية، كأنه يوفر مالًا لأن هذا هو التصرف الصحيح، ويحرص على نصيب طعامه في الثلاجة وحتى أبسط حساب مشترك بينهما، ليس عن بخل، بل انتباه ألا يأخذ أحد حقه، مما حدا بـ م. أن يلجأ إلى الترجمة كي يوفر لنفسه مالًا إضافيًّا.

أيضًا كي يتعامل مع شح المال تلك الفترة، أو كي يسد جوعه، أو كي يتجنب ببساطة سخرية ح.، كان ينزل إلى جاره الهندي الذي صادقه في ليالي الوحدة ليأكل عنده. يذهب للمطبخ فور دخوله ويفتح غطاء جميع

الأواني والأطباق على البوتوجاز باحثًا عمّا يمكن أن يأكله.

كان أچاي بشارب يجعله أكثر شبهًا بعُمر الشريف في مرحلة معينة من كهولته، يستعد لهجمات م. المتكررة بأن يُعِد كميات طعام أكبر بكثير من حاجته، ويطلب منه فقط أن يترك شيئًا يأكله اليوم التالي أو ينحّي طبقًا صغيرًا بسرعة تاركًا له بقية الطعام كله.

مع مرور الوقت أصبحا أصدقاء، رغم قلّة المشترك بينهما ظاهريًّا. وكان م. يحبه بالفعل رغم كميات الكاري والفلفل الحارق والشطة والبهارات غير المعقولة التي يرميها في الطعام كشخص مجنون يهيل التراب على جذوة نار مشتعلة، ولا يكاد يصدق أنه مع هذا كله يأكل المخللات بالشطة الحمراء والسلطة الخضراء باللبن الرائب والفلفل الحارق، بينما يشاهده والدموع والمخاط يغرقان نصف وجهه.

كعادته مع الوحيدين كان يبذل قصارى جهده كي لا يُشعره بالوحدة. وبالمقابل يعرف أچاي مفتاحه، أو التكلفة الماديّة التي تحتاجها تلك الصداقة: الطعام والمزيد من الطعام. كان ذلك اتفاقًا عُرفيًّا غير مُعلَن بينهما.

في ذلك اليوم المشئوم رجع م. من القهوة المجاورة مباشرة عليه، صعد للدور الأول حيث يقطن أچاي ورن الجرس. كان يعرف عقليًّا أنه متضايق من قصة ميريت القصيرة لكنه لا يشعر بشيء. فرد الفعل داخله يأتي بعد فترة تتفاوت من وقوع الفعل نفسه، نوع من التأجيل النفسي الذي اعتاد عليه. رن الجرس مرّة أخرى ولم يجد ردًّا. ظن أن أچاي ذهب إلى السوبرماركت

القريب يشتري شيئًا، فانتظر بضع دقائق بعدما أرسل له يسأل أين هو. لا إجابة.

صعد إلى الدور الثالث ولم يجد ح. أيضًا. لا يريد أن يكون بمفرده ويشعر بالجوع، فغيّر ملابسه سريعًا بملابس البيت الفضفاضة ونزل مرّة أخرى.

لدهشته لاحظ لأول مرّة أن الباب غير مغلق. دفع الباب ودخل ولم يجد أحدًا. دخل إلى ممر الطُرقة فوجد أچاي مكومًا على الأرض أمام مدخل غرفة النوم، على وجهه أمارات ألم، ودم كثير يملأ صدره وبطنه.

وقف دقيقة كاملة متسمرًا في مكانه وذهنه متوقف عن العمل. بعد مضي الدقيقة اقترب قليلًا ونادى عليه. خرج صوته همسًا. نادى بصوت أعلى مبحوح. حاول أن يعرف إذا كان يتنفس لكن وجده جامدًا لا يتحرك، فرجع خطوات للخلف حتى وصل للصالة غير قادر على الالتفات ثم أخرج هاتفه واتصل بميّ.

قال لها إن هناك مشكلة كبيرة. سألته قلقة عمّا حدث، فقال إن أچاي جاره الهندي مات. واسته قائلة البقية في حياته، فقال إنه موجود هنا. لم تفهم وسألته ماذا يعني، فقال إنه ينزف دمًا ولا يتحرك. صرخت «أحا» وأخبرته أن يخرج حالًا من الشقة. فور سماعه ذلك، كأنه كان ينتظر إذنًا، جرى خارج الشقة وصعد قفزًا إلى شقته وأغلق الباب. سألها وهو يلهث ماذا عليه أن يفعل، فجاوبته ألا يفعل شيئًا وأن يبتعد قدر الإمكان. قال إنه

لا يستطيع أن يتركه هكذا وعليه أن يتصل بالبوليس. أخذت ميّ تُأحئح معترضة وتؤكد عليه ألا يفعل ذلك. «إنت مجنون.. هاتلبسها أنت!».

***

بقي م. مع ح. داخل الشقة منتظرًا صعودهم، لكن مرَّت ساعتان دون أن يطرق أحدهم الباب. في النهاية رُن الجرس أخيرًا وبرز شخص يلبس ثيابًا مدنية يخبره أن سعادة الباشا يريده بالأسفل. ارتبك م. رغم توقعه الأمر. ربما لأنه تصور أن الأسئلة ستطرح عليه في الشقة عنده.

خرج م. وح. معًا فقال المُرسَل بإشارة من يده إن الباشا يريد م. فقط بمفرده. توتر م. بشدة ونظر لـ ح. الذي سأله ما المشكلة في تواجده معه، فرد في حدة غير متوقعة أن تلك أوامر الباشا، وعليه أن ينزل بمفرده.

فكر م. في أن يرجع إلى الشقة ويغلق الباب ويكلم أمه لتجلب له محاميًا، لكنه تمالك نفسه حتى لا يثير الشكوك فيه. فكّر أنه لو طلب منه أن يذهب للقسم سيرفض، لكنه فكر أيضًا أنه ليس في مقدوره ذلك.

نزل في النهاية ووجد باب الشقة مفتوحًا على آخره، على غير العادة، وهناك أفراد كثيرون بزي ميري وملكي، ضخام الأجساد تنضح منهم رائحة عرق وسجائر جافة.

سمع أحدهم يقول إن المقتحم دخل من الشُرفة وليس من مدخل الشقة فلم يفهم لمّ وجد الباب مواربًا وزاد ارتباكه وتاهت الأجوبة التي حضّرها.

أشار إليهما رجل ميري، على كتفه دبابير ونسور وأشياء لا يعرف م. كيف يقرؤها، وسأل المخبر الذي يرافقه إن كان هو، فجاوب المخبر أن نعم. فلف واخترق الزحام ودخل إلى الشقة وم. من ورائه.

كان المكان بالداخل أقل زحامًا. أشار له رجل بزي ملكي وشارب كبير يشرب القهوة ليجلس. جلس على الكرسي الذي تمدد عليه مرارًا ضاحكًا وآكلًا ومتكلمًا ومصغيًا ومتألمًا. نظر له الرجل طويلًا دون كلام ثم سأله هل يعرف القتيل. أجاب م. بالإيجاب. سأله هل كانا أصدقاء فأجاب نعم. قال له إن الجيران يقولون إنه كان يتردد كثيرًا على شقة القتيل، فقال بحذر ليس كثيرًا، بل من حين إلى آخر. قال الرجل إن المشكلة كبيرة، فالرجل أجنبي وهذا يصنع الكثير من التعقيدات والحساسيات، ثم سأله إن كان للقتيل أعداء، أحد الجيران في مشكلة معه مثلًا أو زميل في العمل. نفى بشدة وقال إنه شخص لطيف بدون أي عداوة مع أحد. سأله إن كان هناك بواب للعمارة فجاوب أن بحد علمه لا يوجد حارس للعمارة. سأله إن كان شعر بحركة غريبة أو سمع أي أصوات غير معتادة. تظاهر م. بالتفكير للحظات ثم قال لا، لم يسمع شيئًا. شكره اللواء أو العقيد وقال له أن يوقع في دفتر كبير. وقّع بالفعل على محضر الأقوال ثم اخترق الزحام خارجًا وقلبه ينبض بعنف.

وهو يصعد السلم شعر أنه يزن أطنانًا. اندفع إلى وعيه وقوف أچاي بجواره أمام ماكينة السحب الآلي في الشارع الرئيسي تلك الليلة، رافضة

أن تُخرِج نقودًا، وملامح الصدمة على وجهه التي تحولت سريعًا إلى شفقة حين رأى رقم الرصيد على الشاشة، وضحكه محرجًا، مما جعل أچاي يصرّ على شراء شوكولاته وعصير له لما دخلا إلى السوبرماركت بعدها. شعر بغصّة هائلة في حَلْقه.

***

تلك التي قبّلته وهو في ذروة السُكر لأنه سكب زجاجة البيرة، شعر أنها تواسيه في محنة استدعاها طفو رغاوي البيرة على سطح الزجاج. كانت قُبلة مفاجئة على خده الساخن استجلبها مرّة أخرى بسكب جرعة جديدة. في المرة الثالثة نبّهته بنبرة ذنب أنها ستعترف لصديقها. لم يحدد هل تتحدث بجدية أم تريد فقط إبلاغه أن لها صديقًا. في غمرة عربدته ارتمى على الأرض وأخذ يصيح بصوت عال ويغنّي. شعر بذراعين ترفعانه وتجلسانه على الكرسي فتذكر الخادمة الفلبينيّة التي كانت تحمله دائمًا من الأرض إلى فوق على كتفها العظمي، أو أمه وهي ترفعه أثناء اللعب لتقبله قبلات عنيفة لها صوت عالٍ في أذنه. لوهلة شعر بالدفء في قلبه. لما جلس أخيرًا وجدها هي. حدق فيها طويلًا ثم انفجر يبكي دون انقطاع. قالت الفتاة نصف مخمورة نصف يقظة بسبب بكائه المفاجيء بلهجة جادة: «لا تَهلك أسىً وتجمَّل». ودّ أن يسألها إن كانت تعرف ح. لكنه تراجع وتوقف عن البكاء.

الحبُ الأموي

وصل إمبان من الهند بنيّة إنقاذ أحد مشروعات شركته، إلا أنه ظل في مصر بقية حياته، ربما لأنه، بحسب ما أشيع، قد وقع في حب سيدة تدعى إيفيت بغدادلي.

لما وصل إلى مصر طلب مقابلة الخديوي عباس حلمي الثاني. فوجئ الخديوي أن هذا البلجيكي، الذي حصل على لقب بارون بسبب تطويره مترو باريس، يريد قطعة من الصحراء، بل عرض دفع ثمن لها. اشترى إمبان الفدان بسعر جنيه مصري واحد باسم شركته «واحة هليوبوليس». كانت المساحة التي اشتراها تبلغ 25 كيلو مربع. أي أنه اشترى أرض مصر الجديدة كلها بخمسة آلاف جنيه فقط.

كان إمبان مريضًا بالصرع، وكثيرًا ما كانت تنتابه النوبات الصرعية في الليل وهو في حديقة قصره، لتشرق عليه الشمس وهو ملقى على الأرض

العشبيّة وكلبه يقف بجانبه إلى أن يفيق، لأنه من فرط صرامته لم يكن يستطيع أحد من الخدم الاقتراب منه إلا بأمره، حتى لو كان ملقى على الأرض فاقد الوعي.

***

رجع ح. إلى محافظته لوجود أخيه في إجازة من الخليج. رجع م. أيضًا إلى بيته.

حين رجع وجد جدته في البيت. أرسلتها عمته لأنها شعرت باقتراب أجلها وخافت أن تموت عندها في الشقة. ولدت جدته قبل 7 سنوات من وفاة البارون إمبان. أخوها هو الشخص الوحيد في العائلة الذي له علاقة بالأدب على حد علم م.، فقد حصل على شهادة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي عن الشاعر الإنجليزي ت. س. إليوت، الذي قابله لمدة ثلثي ساعة في مكتبه المطل على ميدان راسل الفسيح بدار (فيبر وفيبر) للنشر في لندن. أما بقية عائلته فهي سلالة من المهندسين؛ جده كان مهندسًا، وأولاده أيضًا (عمه وعمته)، حتى أبوه –خريج كلية التربية الرياضية– يعتبر نفسه مهندسًا. ورغم حصوله هو على شهادة جامعية بأنه مهندس، كلفته الكثير، فيبدو أن جينات شقيق جدته كانت قد وصلت إليه عند طريق الخطأ، وتوغلت فيه وسيطرت عليه تدريجيًّا منذ أن كان مراهقًا في سن السادسة عشرة. كان يشعر دومًا بأنه على الجانب الآخر. تضخم هذا الشعور كولدٍ على أختين. كمسيحي. كقبطي. ككاثوليكي. كعلماني. كيساري. كطبقة

وسطى. كبدين. كمريض. كصحيح. كمحبوس في أطراف المدينة. كهو نفسه بين آخرين.

وجد م. أباه جالسًا بجوار أمه البالغة 95 عامًا كقضية خاسرة. يصارع الكسور والقرح العميقة ويسند جنبها بقبضته طيلة ساعات. كان يبدو منكسرًا ومهمومًا وقليل الحيلة أمام الموت الذي يأخذ أمه؛ يظل صاحيًا طوال الليل يحرسها من شبحه بعنف وصلافة.

أطلق فيها طاقاته المعطلة. كان ينظفها بنفس الحماس العُصابي الذي كان ينظف به ماكينة حلاقة الشعر حين استخدمها منه ذات مرّة. يحملها بحزام عريض على وسطه -يستخدمونه مرضى الفقرات أو رافعي الأثقال- على لباس وفانلة بيضاوين يبدو فيهما كمحارب روماني في ساحة قتال يرتدي نظارات طبيّة برجلين عجوزين نحيلين.

يعرِّيها، يقلِبها، ينكزها على سيفها، ويرميها على السرير الكبير ويمسح خراءها وبولها بمنشفة صغيرة وهي تصرخ متألمة تشتمه ودموعها في عينيها من الوجع. يقلّبها على الفراش الذي يغطيه بمنشفات كبيرة بينما تصيح فيه بصوت عالٍ: «اقععد سااااااكت...اقعععد سااااااكت....ابعد عنننييي».

كان يعقِد الفانلة الداخلية البيضاء المهلهلة، الشيء الوحيد الذي تلبسه على جسدها الضامر، حتى تخنق رقبتها فتبدو مثل أرنب عارٍ بفيونكة أو غريق منكمش مربوط بخطاف أحزمة، وتحت العقدة ثدياها الضامران

كصبي مراهق، ليضع مراهم ومطهرات على قرح الفِراش المروعة التي تنخر جسدها. وحين لا يفعل شيئًا ينظر إليها ويتفحصها. يكف عنها لفترة قصيرة، فتضع يدها مفرودة شفافة الجلد على فمها تنظر إلى الفراغ كأنها شاردة في التفكير.

أضاف م. لنفسه تعريفًا آخر للحب: من يحب يمسح خراء من يُحِبه. أبوه يمسح خراء جدته، أمه تمسح خراء القطط، أخته الكبرى تمسح خراء ابنتها الرضيعة، وهو يحاول مسح خراء نفسه.

***

يشتعل الغضب في كل مرة يصرّ أبوه على تنفيذ رغبة أخته، تفاقمت هذه المرّة نوبات ثورتها، القليلة فيما مضى، وفاضت في سيل عارم.

تبدأ النوبات في العادة كحوار عادي سرعان ما يمتلئ -مهما تغيرت وتنوعت الاستجابات- بالأسئلة الاستنكارية التي تصل إلى الدعاء الصارخ والشتيمة وإعلان الكفر. أو تبدأ بسيل من الهمهمة يتجاهله الجميع، تجوب به الأم أركان البيت شاكية الزمن والرب والزوج والعمة والجدة وكل شيء، وشاجبة التضامن مع العدو -العمة التي فرضت الوضع- والأب الشرير الذي يحتقر راحة امرأته، ليتحول المونولوج المرتفع والحاد إلى نوع من التكرار المنغم المُحرق للأعصاب، يستمر في التصاعد تدريجيًّا حتى يصل إلى البكاء، ومن ثم معاودة الأمر كله من جديد.

يمكن أن تشتعل تلك النوبات من أوهى سبب، كطلب عادي مثلًا أو اعتراض بسيط أو سؤال عن مكان شيء ما، لكن سرعان ما اتضح أنها لا تحتاج إلى مفاتيح إشعال أو مسببات، بل لا يمكن تجنب حدوثها، ولو أشار م. إلى خطأ ما في كلامها لتراجع نفسها أو راجيًا هدنة صمت تسارع باتهامه أنه نسخة من أبيه والصراخ: «أنا غلطاااااااانة... بكرااا تتننننداااامم... بكره تعض صوابعك ندممممممم... وتقول الله يرحمك يا أمي على الغلب اللي شفتيه».

تتصاعد قسوة الشتائم في تلك النوبات لدرجة تعجَّب منها م. كيف يتحملها أبوه؛ شتائم مقذعة ودعوات بالموت والذل والمرض، تجعل المارة في الشارع يتوقفون لينظروا تجاه مصدر الصراخ بالدور الرابع. وأحيانًا ما كانت تتقافز حوله في نشاط جسدي غريب عليها، تصرخ وتجحظ عيناها وتشوّح بيديها وهو متشاغل بأمه، متقوقعًا بين غرفته والحمام الملاصق. كانت تقلد أفعال غضبه بطريقتها، وتسعى أن تفلت أعصابه ويتعرض لها، فيكون هناك ضرر ملموس يتحوّل إلى مادة جديدة لنوباتها ودليل دامغ على صدق وصحة ما تقول.

تكرار الكلام كان هو العنصر الأساسي، التكرار المحطم للأعصاب. فلأن الكلمات محدودة وفي الآخر تنتهي، فهي تعاد من البداية وبنفس الترتيب، وتستغل أمه الإعادة للتجويد في الأسلوب أو الأداء، مختارة بعناية أكبر الألفاظ أو النبرة أو طريقة الصراخ وتوقيته. وتتكرر كل نوبة

بنفس الطريقة دون قدرة لأحد على وقفها. تتوقف فقط حين تنام متهالكة من الصداع الشديد والإنهاك.

كان ما يدعم تلك الانفجارات العصبية وجود م. وتأكدها أنه لن يسمح للأب أن يتعرض لها بالضرب، لذلك كانت تطلب منه الحضور الدائم في البيت، ضمانة أيضًا لوجود جمهور، خصوصًا مع انسحاب أخته خارج البيت تجنبًا لكل ذلك.

أما أبوه فازداد صمتًا داخل غرفة نومه منظفًا الجدّة بشكل مبالغ فيه أو في الحمام ينظف ملابسها وأشياءها، كأنه يحافظ على نفسه من الانفراط. بعض الأحيان يترجاها فقط أن تصمت أو يجاوب على سؤال رمته بسؤالها إن كانت ترضى أن تتخلى عن أمها الراحلة، لتبدأ من جديد وصلتها بحماس مشتعل عن كونه رجلًا لا يحترم راحة زوجته التي عاشرته 35 عامًا رأت فيهم أشكالًا وألوانًا من العذاب.

***

لمدة أسبوع كامل، بعد رجوعه شقة (يعقوب أرتين)، استمر م. في سماع طنينًا في رأسه.

وقتما يستيقظ أو يجلس في الصالة كان يتلفَّت حوله ليجد هدوءًا لا يصدقه، هدوءًا مستمرًّا ولا ينقطع بدويّ انفجارات. وباستثناء محاولات أمه المتعطفة للرجوع، المُغلَّفة بغضب وتنمر مكبوتين واتهامات بالخيانة والتخلي، شعر بالراحة والحريّة.

بعد أيام قليلة بدت له المشاكل التي تستنزف طاقاته في حجمها الحقيقي، فشعر بالغبن والغضب. نبهه ح. أنه منذ رجوعه وهو يصيح ويكلم نفسه بصوت عالٍ دون أن يدرك، وردد عليه بعض ما يقوله، فيزيد اندهاش م.. وحاولت أخته -الجمهور الوحيد المتبقي، التي سارعت في البداية مثل م.، في محاولة إيقاف العرض، وأدركت سريعًا فداحة خطئها- أن ترجعه إلى البيت، لأنها غير قادرة على تحمل الوضع، الذي لم يستمر طويلًا على أيّة حال، فسرعان ما توفت جدته مصابة بنزلة شعبيّة عن عمر يناهز خمسة وتسعين عامًا.

الافتتاح

كان الحصان المربوط في شُرفة دار (إيليتيس) محور حديث الناس في الشارع الهادئ.

حصان بنيّ كبير الحجم مربوط بحبل ليفي في السور. لا يبدو عليه الانزعاج من الحشد الكبير بالداخل الذي اكتمل حين دخل سواد الليل. كان الجميع موجودين: م. وح.، وميزو الذي نزل مصر في إجازة، وميّ، وجو، ومهند وسميرة وتقى وإسماعيل، والكاتبة الأربعينية ذات عوينات القطّة، وحتى الشاعرة الشتّامة مطبّقة الجسد بدريّة، النسخة الأنثوية الأقل ذكاءً وموهبة من عصام الموسيقي.

تناهى صوت جدال عالٍ من الداخل. كانت نورهان رفيقة طلعت، صديق م.، تصيح فيه وهو يقول لها إنها تكذب عليه. لم تمضِ لحظات من التدخل حتى كانا يتعانقان معتذرين. استدار م. وقال لـ ح. الممسك

بسيجار سميك: «الحصان عامل شغل والله.. تعرف.. إحنا ممكن نعمل شعار الدار حصان بدل الهيلب أبو تعبان». لم ينته من الجملة حتى تصاعد صوت التراشق مرة أخرى بصورة أحّد، لتخرج بعدها نورهان مسرعة. بدا على طلعت الذهول ثم بدأ في النهنهة. بعدها بدقائق رجع لهما قائلًا: «أنا بعتلها شتمتها.. إزاي تعاملني كده؟! أنا مسحت أرقامها وعملتلها بلوك.. هانشوف هاتوصلي إزاي». واسوه فقال في حزم إنه بالفعل نساها وسلم عليهما وخرج. فخرجا بعده إلى البلكونة ليتحققا من الحصان فوجدا طلعت ونورهان بالأسفل في السيارة يقبلان بعضهما بنهم.

في ذلك الحين دخل الكاتب صُنع الله إبراهيم، بجسده الصغير وشعره الأبيض الهائش وشاربه الكبير، مع كاتب أجنبي سبعيني بعوينات ذات إطار عريض، فهما بعد لحظات أنه الكاتب الإسباني المعروف خوان ميّاس.

حين جلسا وسط الصالة المزدحمة بالجلوس والوقوف، لاحظ م. توتر الكاتب الإسباني، فوضع يده على كتفه وسأله في رقة بالإنجليزية إن كان بخير. رد بالايجاب وقال إنه يشعر قليلًا برهاب الأماكن المغلقة بسبب الزحام، فسأله م. إن كان يريد مهدئًا. بعد تردد وافق، وأضاف: «على سبيل الاحتياط»، ابتسم م. وقال إنه آخر إصدار، ويمكنه خلطه بالكحول. نظر الكاتب الإسباني للحبة الصغيرة في كف يده وتأملها قليلًا وقال «كيف يكون ذلك ممكنًا، أن يستطيع شيء بهذا الصغر التأثير إلى هذا الحد؟». ابتسم م. ابتسامة واسعة واستأذنه ليأخذ جولة سريعة في المكان.

اقترب من موضع كنبة الحب الحمراء التي كانت تجلس عليها متربعة فتاة سمراء ممتلئة قليلًا تمسك بحقيبتها القماشية، فسمع طلاسم كلام غير مفهوم. تذكر أنها صحفية تكتب بالإنجليزية تدعى زينب. اقترب منها أكثر ليسمعها تتلو بصوت خفيض أسماء أشخاص قُتِلوا على مدار السنوات الماضية. سلّم عليها وعلى غير العادة سألها عن التفجيرات المتكررة التي تحدث فأجابت بهدوء إنه جزاء عادل لمن رضي بحكم السفاحين والقتلة، ومن رضي بموت أطهر من في هذه البلد، وصاحت فجأة «مات أجمل من فينا!.. مات أطهر من فينا!» ثم أخرجت من حقيبتها ورقة كبيرة مطوية، فردتها ورفعتها وهي لا تزال متربعة على الكنبة الحمراء، كان مكتوبًا عليها باللون الأحمر «بُكره الثورة تقوم ما تخلي»، وبدأت من جديد تلاوة أسماء بعضها معروف والآخر لا. تجمع بعض الضيوف حولها من ضمنهم ميزو، الذي مال على م. وهمس له:

«أنا عندي طلب».

«إيه يا مان؟»

«لما أموت عايزك تكتب فيا قصيدة رثاء».

«مُعلَّقة يا حب».

«مش بهزر والله».

أكمل م. تجواله فاصطدم بوجود الحصان في قلب الشقة وطلعت ونورهان

على جانبيه يداعبانه، وتجلس على ظهره جيني ببباروكتها الشقراء بملابس حمراء خليعة. صرخ طلعت وهو يبربش عينيه بسرعة، وهو ما يحدث حين يتعصب أو يتوتر، بأنها عاهرة وتعرف رجالًا آخرين عليه، فزأرت وهي تشد عُرف الحصان الواقف بينهما أنها لا يمكن أن تحتمل تلك الإهانات بعد الآن، وأضافت وهي تستخدم انتزاع شعر العرف بأصابعها كإيقاع للكلام:

«إنت ليه بتعقد الأمور وبتدخل الشك في كل حاجة؟ إنت تفتكر أقدر أعيش في الشك دا طول الوقت؟ إنت شخص مؤذي يا طلعت ولازم تعترف بدا... أرجوك ماتكلمنيش تاني وماتبعتليش على أي حاجة.. أنا مش عاوزه أسمع صوتك ولا أشوفك.. بس مش ممكن نكمل سوا»

جاوبها طلعت وهي تستكمل نفس إيقاع نزع شعر الحصان المسكين:

«وإنتِ ليه مصممة تحسسيني بالذنب وإنتِ اللي بتبتدي المشاكل دايمًا، وعارفه إني تعبان وبتضغطي عليا، وفي الآخر تعايريني بضعفي، ما إنت ضعيفة برضو وبتيجي تشتكيلي من أقل حاجة، أنا مش ممكن أكلمك تاني ولا أبعتلك حاجة... إنتِ ما تعنيليش شيء نهائي، رغم إنك كل حاجة في حياتي... بس لو حياتي كده مش عاوزها...مش عاوزها..»

ثم أخرج هاتفه في عصبية وقال بتشنج:

«آدي نمرك أهي.. بلوك لحد ما تعرفي تحترميني وتتكلمي كويس».

وجد أنه لم يفك البلوك السابق الذي وضعه منذ قليل قبل نزوله فأدخل

الهاتف في جيبه مرّة أخرى. أخذت نورهان حقيبتها وخرجت من المكان المزدحم تدفع الناس يمنة ويسرة. تحدث طلعت بكلام سريع مندفع، وهو يرتجف مثل ورقة، لم يسمع منه م. سوى: «بس هي لازم تعرف دا... إني بحبها وإنها كل حاجة في حياتي بس مش عاوز أسمع عنها حاجة تاني».

استمر م. في جولته، فوجد مجموعة من الشباب لا يعرفهم سوى شكلًا يتناقشون في أمر قضية الكاتب صديقهم، التي شغلت الرأي العام، بسبب نشر فصل من روايته الأخيرة يحوي مشاهد جنسية في جريدة حكومية. ذهب مسرعًا إلى ح. وسأله في قلق إن كان سيُلقى القبض عليهما بسبب ما سينشرانه، فلم يردح. سوى بربما، فقال له م. إنه ليس لديه مانع أن يُسجَن، لكن أن يكون السجن في مصر الجديدة، وانشغل بالتفكير إن كان عليه أن يحضر المحاكمة التي ستكون في الأغلب خارجها، أم يمكن أن يحضر المحامي موكلًا عنه. وهو يفكر في تلك المخاطر لمح طلعت ونورهان في زاوية نائية من الشقة متشابكي الأيدي وفي يد نورهان اليسرى كرة كبيرة من شعيرات الحصان الطويلة، فتذكر نيتشه ونحيبه.

الـرّهــان

اختفى ح. مرّة أخرى.

اختفى تمامًا وأغلق هاتفه. بعد مضي عشرة أيام دون الوصول إلى أي نتاية. يعلم م. أنه يهدف أن يمر الوقت كيلا يحفِّل عليه، الأمر الأكثر فداحة له من دفع مال الرهان.

بدأ الرهان في اليوم الذي رجع م. من الخارج إلى الشقة محبطًا، ووجد ح. أمامه يلعب بالبلاي-ستيشن ممددًا على الكنبة التي أصبحت سرير البيت الرسمي. قال م. في زهق واضح:

«بت الكلب عوزاني أحب فيها الأول... طب أحب فيها إزاي وأنا معرفهاش بنت العبيطة. البت دي لو ضربتها سيف يد هاخليها كائن مزدوج الهوية».

رد عليه ح. بعد أن وضع عصا التحكم جانبًا:

«يا ابني أنا لو ست مستحيل أسيب فتحة في جسمي لشخص ابن وسخة زيك».

ثم كأنه تذكر شيئًا:

«إنت لما تكون مقابل ميلفاية جميلة، جميلة جدًّا، وشخصية من النوع اللي بتحبه، وتشوف في عينيها لمعة إنك لو قلبت الحوار صحوبية هتنام معاها فورًا، والمفروض تاخد الخطوة دي عشان تديك رقم تليفونها، تتصل بيها ولا تبعت لها رسالة؟»

«رسالة..»

«طيب، أنا هادخل دخلة الكافيين بتاعتي، عمرها ما خيبت.. المشكلة إني مابحبش القهوة وبضطر في كل مقابلة أشرب قهوة بالعافية..»

«هاتها زيادة أو فرنساوي».

«أحا إنت عايز تفقدني جاذبيتي يا ع*ص، بطلب قهوة من غير سكر طبعًا.. جاذبيتي ممكن تضيع في حتة السكر الزيادة دي.. إنت عارف رغم أني بطبعي مدخن شرس.. لكن في حضور الأنثى لازم بعمل حركة استعراضية كده، ألحم 3 سجاير، أولعهم من بعض لحد ما هي تقول لي السجاير هتموتك، فأنا أغمز بعيني كده بلا مبالاة وأغير الموضوع وأكلمها عن أي حوار تاني.. تعرف ياض يا م. الميلفاية دي من الفئة A1.. هاتبقى خبطة العمر على رأي ممثلين أفلام المقاولات».

«في حدود كام سنة؟»

«40».

«الله أكبر».

هزح. رأسه مؤمِّنًا على كلام م. والتقط ذراع التحكم مرة أخرى ورمى له الذراع الثانية وقال:

«يالا لاعبني ماتش وأنا سخن كده».

***

مساءً، ذهبا معًا إلى قصر البارون من أجل استكمال التحريات في القضية.

لا يبدو القصر، الذي لا تغيب عنه الشمس في النهار، مخيفًا في الليل بأضوائه المنيرة التي تزيده جمالًا. ورغم ضخامته الخارجيّة فإنه صغير الحجم من الداخل، فهو يحتوي على 7 حجرات فقط مقسمة على طابقين، وقد بُني على مدار خمس سنوات وأُعْلِنَ في النهاية كأثر قومي عام 1992.

نظرًا لفخامة تصميمه، الذي استلهمه الفرنسي ألكسندر مارسيل –وهو من صمم أيضًا كنيسة (البازليك) التي يشاع إنها متصلة به بسرداب سري– من مجمع معابد (الأنجكور–وات) في كامبوديا والمعابد الهندوسية في أوريسا بالهند، ظهر في السنوات الأخيرة بيزنس إقامة الأفراح بحديقته الواسعة الأمامية دون السماح بدخول المبنى نفسه.

كان م. وح. يقفان أمامه بكاميرات صغيرة يصوران القصر وهما يرتديان نظارات الشمس والمعاطف، والسيارات تمر خلفهما في (صلاح سالم) بسرعة كبيرة لتهز أطرافها الطويلة، وم. يحكي كيف دخل مرة مع أصدقائه المراهقين في جنح الليل ورأوا الدم على الحوائط يصل إلى الأسقف العالية، مما كان له أثر كبير عليهم بسبب الضجّة الإعلامية في نهاية التسعينيات عن عبدة الشيطان وحفلات الأورجي والقداسات السوداء في القبو، حيث يضحّون بحيوانات ويشوهون أنفسهم ويكتبون عبارات هرطقة بدمهم على الحوائط.

نظر ح. إلى الساعة وسأل م. إذا كان يريد الرجوع للشقة فرد بجدية: «إحنا خلصنا المدرسة عشان نسهر براحتنا بدون ما نكون مضطرين نروح بدري». الغريب إن ح. بدا عليه الاقتناع ورضخ لطلبه بدون تعليق.

ذهبا إلى كافيه (سوبريم) القريب في الكوربة وجلسا ينفثان الدخان من لي الشيش الوردي، وبأيديهما مشاريب ملونة في كاسات طويلة. كانا سعيديْن بالهواء الطلق المعزز بمراوح دائرية ضخمة. رن هاتف م.. فترك المشروب من يده وأمسك بالهاتف. كانت ميّ. رد:

«ألو».

«ماشفتكش ياعم من الهالويين اللي فات.. هاتقضي الهالويين السنادي من غيري؟»

«أنا أقدر برضك!»

«العيد بتاعك بقا... هاتقضيه إزاي؟»

«أنكزايتي على بانك اتاك يا حُب..»

«طيب كويس ماتعملش حسابي عشان غالبًا هاكون وقتها انتحرت».

«كفالله الشر يا زفتة».

«والله الدكتور قالي يا بنتي فيه مشاعر وأحاسيس جواكي طلعيهم للعالم.. بس ملحقتش أطلع أي حاجة بقا عشان الفيزيتا بقت 350 جنيه...»

«يخربيت عقلك..»

«صحيح البنوتة الجديدة أخبارها إيه؟»

«مش طايقها..»

«ليه كده..»

«محدش عارف هو عاوز إيه ولا بيعمل إيه.. حاجة تطهق..»

«طب روَّق كده وسلملي على الأشياء».

«حاضر تؤمري، ويوصل سلامك للأشياء..»

قال ح. إنه يريد الدخول في مجال الرهانات، وإنه مجال مزدهر في مصر، الرهان على كل شيء، بداية من نتائج مباريات كرة القدم حتى نتائج الانتخابات

الرئاسيّة. وحكى له حضوره في الماضي بمحافظته رهانات بآلاف الجنيهات، يديرها رجل ستيني يدعى أحمد سبرتو، في ساحة كبيرة شبه دائرية كان الناس يتعلمون فيها القيادة. الرهانات تُعقد بين سائقي مقطورات كبيرة؛ يتم ربط الكابينتين دون المقطورة بسلاسل معدنية سميكة خلف خلاف، والسائق الذي يقدر على شد الخصم هو الفائز. وهو يحكي مرّت شابة نحيلة ترتدي قميصًا أبيض مشمر الأكمام وجينزًا ممزقًا، حين رأت م. سلمت عليه وسألته عن أخباره ودردشت معه قليلًا ثم مشت. سأله ح. من تكون، فأجاب باقتضاب أنها كانت مُحللته النفسية في السابق، ثم ذكّره بمناسبة الحديث عن الرهانات برهانهما الخاص بأن يظبط مزّة خلال 10 أيام، فجدد ح. الاتفاق وقرر أن رهانهما يبدأ من الغد.

***

بعد مرور أسبوع على انتهاء المهلة ظهر ح..

رآه م. مصادفة في بار (زا جاردن) فناداه؛ أتى وتحدث معه ببساطة، كأنه تركه على الغداء، عن أمانيه أن ترجع شيري إليه.

تقشير البطاطس

ببطء شديد، خطا خطوات صغيرة ليعبر الحديقة التي لا تتعدى مساحتها بضعة أمتار. وصلت خطواته إلى السور العالي، ليفتح قبالته سوستة بنطاله بيد مرتعشة ويتبول على الورد والزرع. شعاع شمس دافئ سقط على ذَكَره مباشرة، قطعته ذبابة سكنت على قمته المرتخية. ظل واقفًا لا يتحرك كأنه في عملية تذكر عميقة.

بعد فترة صمت طويلة، ودون أن يعيد غلق بنطاله، التفت وتحرك ببطء حتى خرج من البوابة الخالية من الحارس الصبي، ومشى مبتعدًا عن مبنى الخدمات الملحق بكنيسة (العذراء الطاهرة)، التي شيدها المهندس المعماري نعوم شبيب في سنة 1942 بصفته أحد أبناء الطائفة، قبل أن يصمم «برج القاهرة»، الذي يبلغ ارتفاعه 187 مترًا في منطقة الجزيرة، بنحو 15 سنة.

في أقل من ساعة انقلب دار المسنين وزادت سرعة وتوتر حركة العاملين فيه؛ اختفى جدو سعد. الأقدام تطلع وتنزل الأدوار الخمسة بما يشبه الهرولة بحثًا عنه دون جدوى. اتصلت أم م. به كي يساعد في البحث حول الشوارع المحيطة.

بعد ثلث ساعة تقريبًا من السير العشوائي في عِدّة اتجاهات، وجده على محطة المترو التالية مُنهكًا، أكثر شيخوخة، وغائب العقل. جلس بجانبه وحيّاه، وسأله لَمَا يجلس هنا. قال إنه ينتظر زوجته عبير لتمر عليه ويذهبا إلى البيت سويًّا. لم يَرُد م. بأن زوجته متوفية منذ 15 عامًا كما يعرف منه هو نفسه، فقط قال إن زوجته ستمر على الدار وليس هنا. رد بغضب أنه لا يعرف ذلك «الدار»، وأن هذا هو مكان انتظاره المعتاد لها.

اتصل م. بأمه، فجاءت مُساعدة تعمل بالدار وتأبطت ذراع جدو سعد وهي تضحك بصوت عالٍ، قائلة إن الجميع كان يبحث عنه وأنه في غاية الشقاوة، وسألته مداعبة إن كان يتنظر مُزَّته فنفى في عدم فهم وقال إنه ينتظر زوجته عبير. بعد تردد سألها: «أنتِ عبير؟».

***

صعد م. مع جدو سعد والمساعدة بالمصعد، وحين دخل المكان رأى جدو عاطف يتجول في الطرقات يتتبع الجدران وهو يتحسسها، مصدرًا صوت حفيف متقطع من شبشبه على أرضية الباركيه، يقول للبعض صباح الخير ويتجاهل الأغلبية.

جدو عاطف كان موظفًا كبيرًا في الشهر العقاري وأولاده كلهم في كندا، يزورونه مرتين في العام ومثل جدو سعد زوجته متوفية. قليل الجسد أسمر اللون يلبس عوينات «قعر الكوباية»، فيبدو شبيهًا بالممثل عبد المنعم مدبولي لكنه أكثر سمرة وأقل حجمًا. أما جدو سعد فتبدو عليه آثار وفرة الصحة في شبابه، عريض الأكتاف قصير وأصلع الرأس من المنتصف. كان جدو سعد يعمل موردًا للجيش الإنجليزي، وفي أوقات أفضل كان لا يتوقف عن الكلام والحكايات، حتى أنه اندفع يحكي له فور رؤيته لأول مرّة حكاية حدثت في مراهقته:

«واحنا في أولى ثانوي صاحبي ع الدكة اتفصل من المدرسة والمدير قاله مش هتدخل إلا لما ولي أمرك يحضر.. فراح مدي نص جنيه لسواق شكله محترم عشان يعمل أبوه قدام المدير.. الراجل دخل على المدير وبدأ المدير يتكلم وهو يتكلم.. يقول له ابنك عمل وابنك سوى وابنك شقي وابنك كذا.. الراجل راح قايم ورازع الواد بالقلم وقال له بتحرجني دايمًا مع الناس كده ومش عارف مصلحتك».

ثم ضحك كثيرًا وحكى بدون مناسبة حكاية أخرى بدون رابط بينهما سوى أنهما حدثا في الماضي البعيد:

«أنا كنت بقعد أقشر أشولة بطاطس لوحدي كل يوم، أفتح الإذاعة وأسمع عبوهاب وأم كلثوم وعبد الحي لحد ما صوابعي تورم وتشلب دم، بعدين بقى فريد أكتر صوت بحبه.. بحب الرخامة والبحّة اللي في صوته دي.. حافظ كل أغانيه».

أشار جدو عاطف للمساعدة التي دخلت للتو، وهو يقف بجانب طاولة الصالة «كاكا..»، ثم أوضح: «عملت كاكا يا سوسن».

بدا لـ م. كل شيء صعبًا ومنهكًا. حتى أبسط الأشياء التي تبدو بديهية وليست في الحسبان. القيام من السرير. ارتداء الملابس. الحمّام. التغيير. التنظيف. غلق الحزام. الباب. فتح علبة شوكولاتة. مسك شوكة.

جلس جدو سعد على الكنبة أمام التلفزيون وبدأ في البكاء: «يا عبير.. يا عبير.. أنا عاوز عبير.. هاتولي عبير»، وأم م. تربت عليه وتقول له إنهم كلهم معه، وتسأله في لوم مصطنع إن كان ملّ منهم. لم يهدأ حتى قالت له إن عبير قادمة بعد قليل، وإنها على وصول. بعد أن هدأ بالفعل وقال إنه لا يريد أن يأكل سمكًا بل فراخًا، فردت أم م. بلهجة عتاب أمومي: «وبعدين معاك يا جدو.. طيب خلاص أنا هاخليهم يعملولك ورك فرخة اللي بتحبها». بعدها التفتت للمساعدات وتندرت أنه نسي عبير فور ذِكر ورك الفرخة، فضحكن جميعًا. شعر م. أنه متورط بشكل ما في تمثيلية مضحكة وسوداء جدًّا.

***

عام 1959 ذهبت الآنسة نادية عبد الواحد، إحدى فتيات الطبقة الوسطى بمنطقة هليوبوليس، والبالغة من العمر 25 عامًا، إلى أستوديو فان ليو تطلب منه أن يقوم بتصويرها عارية. يقول ليو عن نادية: في البداية كانت مرتدية

كامل ملابسها، ولكنها بدأت بالتعري تدريجيًّا، على مدار 12 صورة، إلى أن صورتها عارية تمامًا.

في كل صورة منها كان يتأمل م. الأوضاع التي كانت تأخذها نادية، والملابس التي ترتديها، أو بالأصح تخلعها، ويرى لمعة الجنون في عينيها القويتين، والشبق الجائع في شفتها السفلى المكتنزة، وجسدها الريّان الممتلئ كأنها تستعد أن تكون أمًّا مصرية. كانت، باختصار، تذكِّره بشيري.

لم تنتقل شيري في الشقة/ دار النشر/ المُكنة كما وعدت ح.. لكنها كانت تزوره باستمرار وتبيت عنده في تبادل مع شقتها وشقة أمها التي تعيش مع زوجها الثاني.

ارتبك م. حين رآها للمرة الأولى. فبعد سنوات من استخدام الفيسبوك، بعد رؤية آلاف، بل ملايين من الوجوه، أصبحت جميع الوجوه مألوفة في كل صورة وفي كل مكان. كان في حالة ارتباك دائم: هل رأى هذا الشخص من قبل؟ تحدثا من قبل؟ بينهما معرفة سابقة؟ بالنسبة له أصبحت كل الوجوه مألوفة وكل الوجوه غامضة.

بجانب شعوره بالارتباك اللحظي، شعر وهي مقبلة عليه أنها تتكوّن من 50 كيلو شاي العروسة، وضعفها علوقية مغوية، وثلاثة أمثالها بودرة وكريم أساس، وضحكات مرتفعة فى غير موضعها، وثقة في موضعها تخص راقصة أولى.

أول ليلة باتت فيها عندهما خرج ح. من غرفته يدندن كأنه خارج من سرير ليلة الدخلة ذاهبًا إلى الحمّام، ببوكسر عليه صورة دون كيخوته ينير في الظلام. الفارس على فرسه رافعًا رأسه في شموخ المخلصين البلهاء. كان ح. يستخدم بوكسرات روايته المفضلة في المناسبات الخاصة. نظر م. بجانبه إلى جيني وقال: «هو إحنا ليلتنا فل ولا حاجة!»

تدريجيًّا، بدأ يعتاد م. وجودها في الشقة وفي حياته. يحادثها على استحياء كرفيقة صديقه واشتهاؤه لها يزداد يومًا بعد يوم.

أما هي فمن ناحيتها لم تكن تصد عباراته المنفلتة بل تردها بتحفظ لعوب. لذا، فضّل في المرات التالية أن ينزل إلى الشارع حتى لا يسمع صراخها وتأوهاتها العالية التي كانت تمزق أعصابه. لكنه غيّر هذا الحل سريعًا -بوضع سماعات على أذنه ورفع صوت الموسيقى عاليًا- لأنه آخر مرة بدأ كونشرتو الأصوات قبيل منتصف الليل، ارتدى ملابسه ونزل ليهيم في الشوارع الجانبية واضعًا يديه في جيوبه يفكر في اللاشيء. في ظلام الشارع المجروح بنور أصفر رأى امرأة عجوزًا بملابس ممزقة ومتسخة عديدة الألوان والأقمشة تظهر ساقيها النحيلتين وحول وسطها كيس بلاستيكي مربوط، تقبل عليه بوجه مكرمش وشعر قطني مشعث تسأله عن سيجارة.

حين اقتربت وبرزت في نور العامود بدت أشبه بزومبي نحيل. فتحت فمها تحادثه بابتسامة غريبة فظهرت فجوات سوداء كبيرة بينها أسنان نادرة

مُسوّسة وخربة. لكنها لم تبدأ الكلام إلا بعد أن فتحت سوستة بنطالها «الباندكور» القصير تقول بدلع وغنج مرعبين: «ماتيجي تعاشرني؟». هرب الدم من م. ولم يستطع سوى أن يغمغم بـ«شكرًا»، فاشتعل وجهها بالغضب وصاحت فيه بحدة بصوت مغلّق لا زال مصبوغًا بالدلع الأنثوي: «إيه.. ما عاشرتش ست قبل كده؟» فهرع عائدًا إلى الشقة.

حلم في نفس الليلة أنه في غرفة خالية عالية الحوائط، كأنها زنزانة كبيرة، يُقشِّر جبالًا من البطاطس حوله. جبال مقشرة وجبال أكبر منها تنتظر تقشيرها. لا أحد يأتي. فقط يجلس على الأرض يقشر لأن هناك بطاطس تحتاج إلى تقشير داخل الغرفة.

12 صورة

دون أن يبلغه قبلها، استيقظ م. ليجد ح. قد سافر إلى محافظته لإنهاء أوراق لأخيه المسافر.

هاتفته شيري منتصف اليوم، واقترحت عليه أن يقابلها على قهوة التكعيبة في وسط البلد. تعلّل بعمل وراءه وعرض عليها المجيء لمصر الجديدة أو حتى الشقة متى تشاء، فأبلغته موافقة بأنها ستنهي مشوارًا سريعًا وتأتي، وربما تبيت عنده إن لم يكن عنده مانع. نفى م. وجود مشكلة، وشعر بسخونة جسمه تزداد، وطاف بذهنه اثنتا عشرة صورة ألهبت خياله العشريني.

كان منطقيًّا أن يسأل م. شيري إن كانت قد «وصلت»، إلا أنه انتبه أن في العامية المصرية، كما في الفصحى بما هو معلوم، لا يوجد كلمة تعبر عن ذروة النشوة. أقرب تعبير هو «جبتهم»، وهو تعبير ينم عن الفعل الفيزيقي وليس الإحساس نفسه. ربما يشير ذلك أن المصريين ليسوا مهتمين

بالإحساس بقدر اهتمامهم بالفعل أو الأمور التي تؤدي إليه؛ في الكاما سوترا مثلًا يتم تهميش هذه اللحظة في سبيل التواصل الجنسي وكيفية مدّه زمنيًّا والإبداع فيه بأكبر قدر ممكن. لكن الغريب أنه لا يوجد نظير لتلك النظرية في الثقافة المصرية، على الأقل بشكل متعارف ومنتشر.

أجابت شيري بنعم وتكمل تقبيله، ثم تضحك وتعتدل وتقوم ذاهبة إلى كنبة الصالة أمام التلفزيون.

«أنا عايزة أشوف فيلم عربي حلو.. مفيش؟»

«في شقة مصر الجديدة، عشان تبقا جنبنا هنا..»

ضحكا الاثنان. وبعد أن جلسا تكورت في حضنه بلباس داخلي استرتش أسود، وتي شيرت رمادي خفيف يُظهِر وشم جناحين على عظمة الترقوة مرسوم حديثًا، ووضعت قدمها الحافية البيضاء المكتنزة على رجليه وهي تداعب شعر يده وصدره، وتمسك بالأخرى كانز مياه غازية. وبقيا يشاهدان برنامج مسابقة الغناء (ذا فويس).

أتت بسكوتة وجلست فوقها، فداعبتها بنعومة وأمومة ثم تجشأت بصوت عالٍ فامتلأ المكان برائحة التفاح الأخضر. سألها وهو يدخن سيجارة الحشيش لماذا الأحمر، فأجابت أنها طالما تخيلت نفسها بشعر أحمر، وانتزعت الجوينت من يده وسحبت نفسًا جشعًا حبسته بالداخل، ثم أخرجته في الهواء كمنضاد كبير تشكّل حولهما.

اقترح عليها أن يصورها اثنتي عشرة صورة، تبدأ بكامل ملابسها وتنتهي وهي عارية تمامًا. بدا عليها الحماس الشديد واعترفت له أنها كانت ترغب منذ فترة طويلة أن تكون موديلًا عاريًا في جلسة تصوير آرتستيك.

قام ليجلب الكاميرا من الداخل، ووصلت رسالة لـشيرين من ح. تقول «بحبك يا بت الكلب»، ولـ م. بعدها بلحظات تقول «غلبت أقطع تذاكر وشبعت يارب غربة». حين رجع رأى على وجهها، غير المتحمس لعمل أي شيء الآن، التأثر الشديد. شاع في الجو صمتٌ وتغيّر في الموود بدا أسوأ من مزاج مبارك مساء يوم 11 فبراير. قال لها محاولًا كسر الوجوم المخيِّم:

«ما تيجي نقلع ومانعملش حاجة عشان نكيد بعض؟»

ضحكت وقبلته قبلة شهوانية طويلة وقامت ترتدي ملابسها. جيبة سوداء قصيرة وبلوزة بفتحة واسعة يتبدى منها مفرق كبير يصنعه نهداها الكبيران. ربتت على كتفه وهي تقول بدلع: «بعدين يا حبيبي أمي كلمتني ولازم أروح».

دَرسٌ في التشْريح

كانت أم خارجة مشهورة بالنكاح. ويقال فيها: أسرع من نكاح أم خارجة. كانت ذواقة، إذا ذاقت الرجل وجربته طلقته وتزوجت غيره. تزوجت نيفًا وأربعين زوجًا. وكان الخاطب يأتيها، فيقول: خطب! فتقول: نكح! فيقول انزلي، فتقول: أنخ. وكان أمرها إليها إذا شاءت أقامت وإن شاءت ذهبت، وعلامة ارتضائها للزوج أن تصنع له طعامًا كلما تصبح.

طال مكوث ح. في بلدته، وجاء يوم الهالوين.

ذهب م. وشيري معًا إلى حفل تنكري يقيمه معارف أصدقاء له قرب ميدان (المحكمة). لم يعثر على ملابس تنكرية على مقاسه، ولم يكن معه مال ليشتري زيًّا جاهزًا، فاستخدم جلبابًا أبيض جاء هدية له من السعودية وربط قماشة فوق رأسه كأنها غطرة فأصبح خليجيًّا ضخمًا، أما شيري فأصبحت حورية بحر خضراء.

الحفل كان تابعًا لدائرة أصدقائه المثليين، ولم يكن به سوى زوج مغاير غيرهما. لذا ضحك كثيرًا لرد الشاب الرفيع، الذي يقف بجانب طاولة المشروبات يمسك بكوب نصف ممتلئ، ويلبس جينزًا وقميصًا عاديين، مستندًا إلى الحائط، حين سأله لِمَ لا يتنكر مثل الباقين، لأنه مال عليه وقال بصوت خفيض كأنه يبوح له بسر: «أنا متنكر.. بس في صورة واحد استريت».

بعد الاختلاط العشوائي في بداية الحفل، تجمع الموجودون في دائرة في الصالة حول لعبة جماعيّة، عبارة عن بطاقات ولوح فيه مؤشر، حين يدور ويقف طرفه أمام لاعب، فعليه أن ينفذ الأمر المكتوب في البطاقة.

توالت الأدوار وتكرر الضحك الضاج من غرابة الأوامر وطرافتها. جاء الدور على م. وكان الأمر أن يقبّل اللاعب الذي سيقع عليه المؤشر. دار المؤشر مرّة أخرى ليتوقف أمام شاب وسيم أطول منه -كان صاحب البيت- فضحكوا جميعًا ونظروا إلى م. ينتظرون ما سيفعل، فما كان إلا أن قام في خجل نصف سكران وقبّله على فمه.

لا يعرف م. بالتحديد كيف تطور الأمر سريعًا هكذا. دقائق أخرى قليلة وانتهت اللعبة شبه البريئة، ليرى شيري، ومَنيّه لا يزال على بطنها من قبل الحفل، تتمرغ في أحضان الشباب نصف العرايا، المتنكرين بريش أبيض وأقنعة سوداء وبيضاء كمحاربين أفارقة، تقبِّلهم بنهم رغم أنهم مثليون.

سألها وهي تلعق لسان أحدهم وتحضنه بنفس الطريقة التي تحضنه بها عندما تفعل، محاولًا إيقافها، لكنها صدته قائلة بصوت مبحوح من السُكر والشهوة: «دي فرصتي.. إديني فرصتي بقا».

دخل إلى الحمام وتقيأ في الحوض. تحوَّل من خليجي إلى قاهري مرة أخرى. نظر لنفسه في المرآة بصرامة مدة دقيقتين وخرج.

جلس على الأرض، كقاهري سكران، يشاهد ما تفعله شيري، راسمًا على وجهه ابتسامة ثابتة، حتى أن واحدًا منهم نظر له بتأثر وحاول أن يقول شيئًا، بينما تمسك هي الأعضاء كما يمسك طفلٌ بحلوى يريدها جميعًا في نفس الوقت.

تحولت شيري إلى شعلة حمراء في الصالة الكبيرة. تتقافز كالضفدع ولحمها الأبيض يهتز ويلمع عليه العرق الغزير في الضوء. وهو مسطح على السجادة يتفرج. كانت تصرخ بشكل مبالغ فيه. بشكل لا يُصَدَّق. وبعد كل مرة تنظر له وتحييه بهزة رأس.

انطفأت أصوات الرزع والصريخ والارتطام، وتراجعت إلى الخلفية، وبدت له الأجسام في مكنونها كأنه يرى بأشعة خارقة ما وراء الحاجب: عظام الرَّأس فالعظم الإكليلي، وهو تحت قوس الرأس، وهو مَقْسُوم بِالَوهمِ وتحته الجبهة، وفي باطِنِه يكون الحِسُ المشترك، وأعلاه التُخفُ وفيه نَفْحَ الحيوان وفيهِ مؤخرة النُّقرة التي فيها العظم الوَتَدِي الذي هو في رأس الفَقَرات التي هي عمود البدن، وفيها النُّخاع، وهو دَاخِلُ في النُّقرة وعليه

يدور الرأس يمنةً وشِمَالًا، وتحت الجبهة الخَيَاشِم وإلى جانبيها العَالِيَيْن نُقْرَتَانِ هُمَا مَحَلّ العَيْنَين، العَظْمَانِ الحَجرِيَّانِ اللذان فيهما الأُذُنَانِ وهُمَا محلُّ السَّمْعِ، وفيهما يدخُلُ الريح فيَقي الطَّبْلَة التي في داخل الأذن في الثُقْبِ الحلزوني، فيَصْعدُ إلى قُبَّةِ الدِّماغ فيَدْوي فيها، فتُدْركه القُوَّة النَّفسانية التي من خَصَايصها الإدْرَاك بالإِرادَةِ. الإرادة.

كان لا يريد أن يغلق عينيه أو يقوم. كان يريد تسجيل كل لحظة وكل نبضة حتى يستخدمها في مسح محبته. في تذكير نفسه للأبد بما يحدث أمام عينيه المفتوحتين.

في بعض اللحظات تقترب وتضع يدها على كتفه وتمررها في رقة وتقبّله، فيبعد وجهه، فتنزل القبلة على جانب شفته، لترجع إلى ما تفعله باهتياج طازج. حينئذ عَرف ما تعنيه الشفقة على الذات. دارت دائخة تقدم نفسها لكل واحد كأنه الوحيد. جميعًا بنفس الدرجة. بنفس الإخلاص. كان سيضحك من دروس الأخلاق التي تعطيها له لو لم تكن تصدقها هي نفسها، لكن ذلك كان فوق طاقته.

شعور الحب انطفأ كنهاية سيجارة في دلو ماء. بدأ التفكير في كيفية الانتقام. تصرخ بحدة كأنها تتمزق وأحد الأجساد الرياضية العارية بكوتشي أبيض يرهزها واقفًا وهي تتشعبط فيه. تطوّح وجهها إلى اليمين واليسار وشعلتها الحمراء تتبعها ومؤخرتها ترتج من خبط الجسد. لا يستطيع الوقوف. لا يريد الوقوف. يريد أن يرى ويسجل فقط: الحَنك الأيمن، عظم الحنك،

الطرش من الحصى ومن الفحم الزّايد في الأذن والبرّية الرَّطْبَة. هُنَا يكون اللَّوْقَة. هُنَا يكون الشُّقَاق لِيْنًا وفي الرَّقبة وفي الشَبْح. هنا يكون سَيَلانُ الدَّم والرْيَال. هُنَا يكون الإسْتِرْخَا. هُنَا يكون البيضة والغازُ الرَّطب واليابس والحار والأضراس والأسنان فمعروفون العِدَّة لِكُلّ أحَدٍ. الخُنَّاق في الحلح. الحنكُ الأيسر. ثمَّ الحَنَكَانِ اللذان فيهما الأضراسُ والأسنان وعِظَامُ رِفَاقٍ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين، ثمَّ إنكم بعد ذلك لميّتون والله أعلم.

انضم جمع الحفل وصنعوا دائرة كبيرة حولها. جلست علي ركبتيها وارتمت على ظهرها كراقصة شرقيّة محترفة ثم الجسم من الأعلى إلى الأسفل (غير متضمن الرأس): القلب. خارجُ الزيَّة. هذه الزيَّة اليُسرَى. الطَّحال. الخاصرة. الخاصرة. الفخذ الأيمن. الفخذ الأيسر. ويُستَحبُّ عرضُ باطن حَوْسِيه من موْضع أم قُرْدَان أسفل باطن الرُّسْغ وعظم حافره وارتفاع حواميهِ وحوامِيه مَوَاخرِ حوافره ما ارتفع منه النُّسُور، ويستحب من النسر أن يكون كالحصي والله أعلم. وهذا درسٌ في تشريح صفة الفرس المسطوح على ظهره الغارق كلية في السائل الأبيض اللزج.

وقفت تلهث بعمق وهي تلعق شفاهها. في هذه اللحظة قام وسلَّم على صاحب البيت الذي قبّله في لعبة التحدي السكرانة وفتح الباب وخرج. انتبهت شيري وصاحت فيه غير فاهمة وهي تمسح نفسها بمنشفة تسأله إلى أين هو ذاهب. دون أن يلتفت جاوب أنه يجب أن يعود للمنزل. أطلت نصف عارية من الباب تستجديه أن يبقى فهي لا تعرف أحدًا هنا غيره،

وتقول في لوم إنها جاءت معه ويجب أن ترحل معه. التفت لها من السُّلم وحدّق بها طويلًا. ثم نزل السلالم مرة أخرى وهو يرد في هدوء شديد بأنه يجب أن يعود حالًا.

***

على الهاتف قال إنه يريد أن يعترف له بشيء، لكن ح. قاطعه:

«شيري قالتلي إنك نمت معاها... أنا مش حقول لك غير اللي قاله برزان التكريتي لقاضي محاكمته.. قاله أنت أخي يا رجل وأنا أعتز بأخوتك، حتى لو حكمت عليّ بالإعدام فأنت أخي، كل عراقي أخي، هذا ما تعلمناه وشربناه في حزب البعث».

صمت م. طويلًا.

الشَرُّ

حين دخل ح. من باب الشقة، كان م. متربعًا على الأرض يشاهد التلفزيون. لا يشاهد ما يُعْرَض عليه بل يشاهد التلفزيون ذاته. يشاهد الشاشة السوداء المعلّقة أمامه على الحائط. في يده زجاجة بلاك ليبل لا يملأ السائل الأصفر الغامق فيه سوى أقل من الثُمن، وفي اليد الأخرى جهاز تحكم البلاي ستيشن، وفي حضنه المانيكان عابرة البحار، جيني، صلعاء الرأس.

بمجرد أن ترك ح. سلسلة المفاتيح على طاولة السفرة، التفت يقول في صوت سكران حزين:

«جيني بتحب الهدوم الحلوة.. بس مش بتهتم بالماركات...جيني يا ح.، أجدع من أي معالج نفسي.. وقفت جنبي دايمًا وحولت تفكيري وتعريفي للحاجات.. الحرية والحب والعلاقات.. الأمور ساعات بتكون صعبة.. تنضيفها من جوه وكده..»

سكت ولم يضف شيئًا حتى ظن ح. أنه نام ليكمل فجأة:

«عشان كده بحب أجيبهم برّه.. في الأول زي أي اتنين جداد في علاقة كان السكس كتير وعلطول.. بس دلوقتي الموضوع مش مهم قوي بالنسبة لينا.. جيني كائن حساس يا ح.، وغلبانة قوي قوي.. رغم إنها مش بترد عليا كتير بس لما بتزعل بنتصالح بسرعة».

استدرك كلامه بابتسامة:

«إنت كنت معاها صح؟... هاتغتصبك يا أهبل...مش قصدي تغتصبك... هاتغتصبك في أفكارك هههههههههههه».

ثم صاح كأنه يخطب في جمع:

«شرا... الكوربة.. أبناء الوطن.. علينا أن نتحد جميعًا ضد قوى الشر والشرم... فإن كما ترون.. الشر جزء من كلمة الشرم...، شرا... الكوربة.. أبناء الوطن.. يُحكى أن غزالًا شرد في الغابة حتى جن الليل وحار في أمر نفسه وبينما هو.. بينما هو.. ما علينا.. يبقا شيل دي يابني في المونتاج..».

نظر إلى ح. وقال كأنه أدرك للتو الأمر:

«بس تعرف.. الفرق بينها وبين جيني إنها بتعرف تنضف نفسها بعد ما نخلص». ثم صاح بصوت عالٍ جدًّا:

«بس على مييييين داحنا ملوك اللوع وأمرا الخصاااااام».

أردف بنبرة هادئة كأنه يحادث نفسه:

«الحب غلط يا ح... الحب حرام.. نصرة لاخواتنا ف غزة.. ولأن الستات غدارين..»

علّق ح.:

«بس عندهم أشياء مهمة ودا يغفرلهم حاجات كتير».

وافق مستسلمًا وبحث عن زجاجة الويسكي يقربع منها ما تبقى ليتساقط من جانبي فمه كبطة حزينة. عاد يستأنف:

«عليها بتاع أحلى من سدوم وعامورة.. هاقولك فزورة: إيه اللي تشوفه بس في مصر الجديدة ووزنه أكتر من 145 كيلو؟»

لم ينتظر إجابته بل أكمل بسيل حر من الكلمات:

«تصدق في الأول مكنتش فاهم إزاي الأيديولوجيا هي اللي بتشتغل.. مش الذوات اللي بيشغلوها.. لكن فهمت بالعملي.. العملي خلاني أسمع حكايات الناس فجأة زي الفلاح اللي بينبسط بالحواديت.. والحواديت مش وحشة.. خصوصًا لما كرشك في المراية كل مرة يخبطك.. القصايد بالانجليزي حل لطيف.. منا محتاج في الشتا قصايد.. أمال هانولّع في إيه؟»

***

في الأيام التالية شغل م. نفسه بشكل مهووس بالهند. يجلس بالساعات على الإنترنت يتشرب المعلومات تلو المعلومات عن تاريخها وحضارتها ولغاتها وعاداتها وآدابها وفنونها. الهند قارة مكتملة وحدها.

ما أحزنه أنه لم يقدر أن يتمثل الشرق السحري، مع أنه شم العديد من البهارات، وذاق مختلف الأطعمة، ورأى آلاف الصور، وسمع مئات الأغاني، وشاهد عشرات الأفلام والمسلسلات التلفزيونيّة الطويلة المبتذلة.

في التعليم تبنى وجهة النظر أن تكون اللغة الهندية هي اللغة القومية في جميع الأقاليم، لذا لا بد أن تُدرَّس إجباريًّا في المدارس، وفي السياسة أن تكون حصة التخصيص، الكوتا، بحسب الطبقة وليس الطائفة.

بجانب ذلك تعلم أيضًا كيفية صنع آيسكريم القشدة والتوت الأزرق منزليًّا، بعد محاولات كثيرة فاشلة ضاعت فيها جالونات كثيرة من اللبن والنكهات الصناعية والطبيعية سدى، حتى وصل إلى الطعم والقوام الذي يبحث عنه.

عن طريق الصدفة، وجد بديلًا آخر يمرر به الوقت لا يؤلمه بنفس القدر، وهو يشتري مكونات الآيسكريم من السوبر ماركت القريب، حيث قابل صديقًا فيسبوكيًا عزمه ليأتي إلى بيته كي يسهرا معًا.

واظب على حضور «جلسة الأُنس» شبه اليوميّة في منزل صديقه بشارع (الميرغني). كانت جلسة الكيف والسكر تتكرر بحذافيرها كشريط تسجيل

حي، بنفس الإفيهات والوقفات، ونفس الأسئلة والإجابات والآراء والتعليقات، حتى الأغاني التي كانت في الأغلب طربية وقديمة لمطربين مثل صباح فخري، عبد الوهاب، سيد درويش، وأحيانًا -على مضض منه- لطفي بو شناق. لكن سرعان ما انتهى الأمر حين سأله في وسط الجلسة مرة شخص لا يعرفه: «إيه الكلام البضان اللي كنت كاتبه النهاردة دا... خرا فشخ بصراحة» دخل المطبخ وخرج يمسك سكينًا طويلًا وهجم عليه وضرب وجهه بالمقبض الأسود فتفجر الدم وسط فزع الحاضرين.

بعدما أنزلوه قريبًا من البيت، مر بمحل الحيوانات الأليفة القريب. وجد الباب مواربًا. أصابه شعور حاد بالحزن والغضب. دخله بسرعة. رحب به الشاب الرفيع الذي كان يتكلم على الهاتف وتفاجأ بدخوله، وابتسم لتظهر أسنانه البنيّة القبيحة من السجائر والقهوة والشاي المستمرين.

لم يرد م. تحيته، ولم يقل شيئًا، بل رفع خشبة عريضة مسنودة على الحائط، ونزل بها على رأسه.

ارتج الشاب وتحولت ابتسامته الصفراء إلى تقلصات شوهت ملامح وجهه. أكمل ضرباته على رأسه ووجهه حتى أسقطه أرضًا صارخًا: «عشان تبقي تموتلي قطتين يابن الـ.....». وأخذ يكرر السباب في هيستريا وهو يضرب جميع الأقفاص، فخرجت الكلاب والقطط والسلاحف والعصافير والطيور، حتى بدا المكان سيركًا ينطلق في فوج رسمي كي يسلّي أبناء الحي.

كان واقفًا أمام الباب مغطى كاملًا بالدم، يبدل العصا بين يديه، على الجانب الآخر من الخوف.

المصحّة

دخل م. المصحّة بعد أن قُبض عليه، ودفع أهله مبلغًا فلكيًّا كتسوية أضرار شخصية وتلفيات ومفقودات ذو الأسنان الصفراء النخرة التي طارت نصفها، والذي كان يرقد في المستشفى بين الحياة والموت.

دخل معه أيضًا طلعت في نفس المصحة بـ(النزهة الجديدة)، لأن حالته ساءت عندما أوحت له نورهان إنها تخونه مع صديق لها، هو نفسه صاحب شقة (الميرغني) التي تقام بها جلسات الأنس.

عرف م. بعد خروجه أن طلعت كان يشتمها بصوت عال في كل مكان. يأخذ سيارته ويدور في شوارع القاهرة صارخًا بأنها عاهرة وخائنة، يشتم رجال المرور والمارة والسائقين المجاورين ويكسر عليهم وينزل ليتعارك معهم بالأيدي أو الأسلحة البيضاء. يكلِّم أصدقاءه واحدًا واحدًا ليقابلهم

ولا يترك لهم فرصة للكلام، بل ينفجر بأن نورهان عاهرة قذرة ولا بد أن يفشخها ويؤذيها.

حين وصل الكلام لنورهان كلمت صديقها صاحب شقة (الميرغني)، كي يتصل بشخص على معرفة به في جهة سيادية، والذي ذهب مع شخصين وتحدثوا إلى والده، وكلمه أيضًا في الهاتف يحذّره أن يبتعد عنها ولا يأتي بذكرها في أي وقت وإلا وقعت مشكلات كبيرة.

وقتها هرب طلعت إلى الصحراء واختبأ لمدة ثلاثة أيام، وحين رجع اعتكف في البيت يقرأ في كتب التنمية الذاتية الروحانية، التي يشتريها عادةً من سفرياته للخارج. قرأ في أحدها ألا يتوقع شيئًا من أحد، وبذلك يتحرر لأنه لن يفكر أو يخاف مما سيفعله الآخرون به. اتصل بأخيه الأصغر بعد نصف ساعة، يصيح بأن هناك طائرة هليوكوبتر تترصده من الشباك أمام بيته ويصرخ: «أنا مش متوقع حاجة من الطيااااااارااااا...أنا مش متوقع حاجة منهاااااااا.. ابعدي عني.. ابعدها عنييييييي.. ابعدي عني.. مش متوقع منِك حاجاااااااه!!»

أغلب المقيمين في المصحة كانوا من المدمنين، هكذا اكتشف م. وطلعت سريعًا. كما اكتشفا أن القواعد صارمة يصعب كسرها: لا هواتف أو زيارات في أول أسبوع. ممنوع الولاعات أو أي شيء قابل للاشتعال. ممنوع أي أدوات حادة أو لها زوايا حادة. ممنوع التحفظ على أي أموال. ممنوع التواجد خارج الغرف بعد المواعيد المقررة. لا ستائر على الشبابيك (منعًا للانتحار

باستخدام حبالها). فور دخول النور عليك الاستيقاظ والنزول. تفتيش ذاتي للنزلاء مرة في الصباح ومرة في المساء. هناك وقت حر للتمشية في الحديقة لمدة ساعتين بجانب حصص العلاج بالرسم والموسيقى والرياضة.

الغريب أنه على عكس ما يشاع عن هدوء المصحات كان القسم الذي يقيمان فيه شديد الإزعاج بصوت التلفاز العالي ودوشة لعب وصياح النزلاء. مع ذلك، استطاع طلعت أن يتخلص من نورهان أخيرًا عن طريق جلسات الكهرباء والحوار اليومي مع مُشرِفه.

في البداية لم يكن يتذكر سواها، ثم بعد ذلك لم يعد يتذكر سوى أحداث غير مترابطة، وفي النهاية نسيها تمامًا.

أما م. فانتظم على أدوية مهدئة ومثبتة للمزاج ثقيلة، راقدًا طيلة اليوم يقرأ ويرسم. دومًا الرسمة نفسها؛ حصان مُفلطح أشبه ببقرة حمراء نافقة مُصوَّرة من أعلى.

***

في تلك الأثناء عرف زوج شيري العائد بأمرها.

لأيام متتالية جلس على قهوة (أبناء سوهاج) بقرب الميدان، يحاول التقاط أية معلومة عن أصحاب الشقة. كل يوم في الصباح يشاهد رجلين أربعينيين يلعبان الطاولة بفيض ممتد ومستمر من الشتائم البذيئة، يتنافسان في تركيبها وجدّتها وقوتها. وفي المساء يرى شلّة إسماعيل وعصام، مع بعض

الشباب الأصغر سنًا، يتناقشون بحمية في كيفية أخذ مقاليد الحكم والسلطة، والمعوقات التي أمامهم في سبيل ذلك، والهجمات الإنترنتية التي يقومون بها. يضحكون بعنف على تعليق قاله هذا أو رد فعل غاضب قام به ذاك، وفي نشوة يعودون لمناقشة المشهد السياسي المشتعل ودورهم فيه.

في صباح اليوم الرابع لم يستطع زوج شيري إلا أن يسأل الرجلين لمَ يتشاتمان هكذا، ففتح الأصلع ذو الوجه الممتلئ هاتفه ليريه جروب واتساب باسم «وكر الشرامـ.. أحا»، قائلًا إنهما يكملان الشتائم التي لم يسعفهما الوقت لقولها في البيت، ويبعثان رسائل الساعة الثالثة أو الرابعة صباحًا تحتوي على عبارات مركبة بصورة عجيبة من الشتائم. بشكل مبهم شعر زوج شيري أن بالأمر شبهة جنسية مما زاد نفوره، فاستغفر وحوقل ورحل.

عاد في المساء وسأل شلة الشباب الثوري عن شقة (يعقوب أرتين) في الدور الثالث التي هي مقر أو مكتب أو شيء من هذا القبيل، ليجاوبه إسماعيل أنها دار نشر تسمى «إيليتيس» وصاحباها يُدعيان ح. وم.. وسأله من يريد فيهما، فقال بعد تفكير «ح.» لأنه الاسم المسلم. سأله بدوره إذا كان هناك ستات تصعد إلى تلك الشقة، فقال إنه في الحقيقة لا يعرف، لكن عصام تدخل وقال إنه بالفعل شاهد واحدة بالذات تصعد تلك العمارة وتنزل بشكل متكرر، مليئة الجسد قليلًا وشعرها مصبوغ بلون أحمر. حاول الزوج أن يستنبط شيئًا من تلك المعلومة، لكنه قرر في النهاية أن يواجه

شيري بشكل مباشر لينهي كل هذا الدوار والشك.

دون أن يرمش لها جفن قالت شيرين إنها في مهمة سرية مع المخابرات، ولا تستطيع إعطاءه أيّة تفاصيل، لكن طبيعة المهمة يتحدد وفقها مصير البلد في هذا المنعطف الخطر.

لم يقدر الزوج المسكين على التمادي في الاستجواب، وأعلن انهزامه الكامل؛ ضربها علقة موت وطلّقها ثم رجع إلى الخليج، تاركًا خلفه ابنه الوحيد، لتختفي معه في مكان غير معلوم، حتى إلى ح..

المَهَمة الأخيرة

السكايب مفتوح على الشاشة السوداء. يتحدث ح.:

«بعد ما دورنا وبحثنا وعملنا تحريتنا وتأكدنا من شركات التاكسي في باريس، وصلنا لنتيجة أن الأستاذة داليا مخرجتش برّه الشقة».

فترة صمت طويلة. ردت د.:

«قصدك إيه مخرجتش بره الشقة؟»

جاوب م.:

«ماتبخرتش يعني، لا؟»

فترة صمت. لا رد.

سأل ح. بعد أن أشعل سيجارة:

«مافيش بلاطات مرفوعة، مافيش كسر أو دهان على الحيطة جديد؟»

«لا!»

سأل م. بعدما أشعل سيجارة بدوره:

«كانوا بيكرهوا بعض؟»

جاء صوت د. مترددًا بلكنته الفرنسية الواضحة:

«فريدو وداليا؟ مابينسجموش مع بعض قوي.. بس مش زي مانتا فاكر».

كانت أول مرة تقول اسمه كاملًا. نظر ح. إلى م. ثم أطفأ السيجارة في المطفأة رغم أنها كانت لا زالت في بدايتها وقال:

«بصي يا أستاذة د.، إحنا عندنا شك أن مسيو فريدو له يد في الموضوع، ومتأكدين أن داليا مخرجتش من الشقة، عندك حل للمعضلة دي؟»

بدا على صوت العميلة العصبية، ربما لأنها كشفت اسم رفيقها أو لأن الاستنتاج الذي قيل توًّا بشع للغاية:

«دا آخر كلام عندكم؟»

رد م.:

«لحد دلوقتي.. لو جد جديد أكيد هانبلغك..»

«أوكاي أورفوار».

لم يمر يومان حتى بعثت العميلة د. رسالة مختصرة على الإيميل بأن المهمة انتهت، ولا ينبغي لهما استئناف أي شيء بعد اليوم. راجع ح. الموقع وحساب شركتهم الوهمية ليصيح في غضب: «مابعتتش الفلوس بت الوصخة!.. أنا مش هاسكت!».

زاد الطين بَلَّة رسالة ميزو التي أفصح فيها عن كونه في الحقيقة الممول السعودي عبد الله البزوزي، وإنهما مجرد «كاوركات» يتم «اشتغالهما» بسهولة، وأرسل الكثير من وجوه الضحك الصفراء والكثير من الـ «اعووووووووووووووووووو».

***

اتصل حسين في نفس الأسبوع بـ م. وح. يُوسِّطهما في اتفاق توريد أغذية نصف جاهزة لدار العجزة الملحقة بالكنيسة عن طريق أم م.، ولهما نسبة 20% من كل صفقة بصفتهما شركاء معه. استغرب م. كيف عرف حسين تلك المعلومات عنه وعن أمه، فقال له ح. إنه حكى لحسين تلك الأشياء في معرض حديث بينهما حين قابله آخر مرة في مدينة نصر.

وافقا الاثنان سريعًا، كتعويض لتبخر فرصة الممول السعودي الوهمي والأجر المفقود في مهمة التحري، بجانب إفلاسهما التام تلك الفترة.

تحدث م. مع أمه وأقنعها أن تجعله يتواصل مع الأب القيّم على الكنيسة. وافق الأب دون تدقيق كبير، لأن الحالي كان ينهي أعماله في مصر مهاجرًا

إلى جورجيا. تفاءل م. بهذه المصادفة السعيدة، وفي نفس اليوم تم الاتفاق مع حسين لجلب البضاعة.

بعد أربعة أيام جاء حسين في الموعد بسيارة ربع نقل، وبدأ في تنزيل الكراتين والعلب مع السائق الملتحي، يسلمها للمسئولين عن المطبخ تحت إشراف الأب الراعي شامي الأصل.

دخل م. المبنى صاعدًا إلى أمه. لكن لم يكد يخطو بضع خطوات ناحية المصعد، حتى سمع من خلفه تكبيرًا بصوت مهستر وحاد، دوى بعده صوت انفجار رهيب، طار على إثره مقذوفًا على طاولة وكراسي مكتب الحارس المرتجل.

قام يتحسس جسده متأكدًا أنه سليم. رجع مُهرولًا إلى الخارج. جبهته تنزف الكثير من الدم وهاتفه يرن بإصرار. صوت أمه على «الإنتركم» يصرخ مناديًا عليه وعلى الآخرين. خرج في ضوء النهار ليرى حطامًا ودخانًا وأشلاء، استطاع أن يميز بينهم التي-شيرت المخطط عرضيًّا بخطوط زرقاء داكنة الذي نزل به ح.

نِهَايَات

في أيام صوم أبريل كانت كنيسة (سانت ريتا) تتسع لأكثر من شخص وأقل من شخصين.

(سانت ريتا) كنيسة صغيرة مُلحقة بكنيسة (المارونية) في بداية شارع بيروت، وهي في المحطة الثانية من «مسيرة الكنائس السبع» – المحطة الأولى: كنيسة (البازليك) للاتين، موقع دفن البارون إمبان. المحطة الثانية: كنيسة (المارونيت) للكاثوليك الموارنة، ويتبعها كابيلا (سانت ريتا). المحطة الثالثة: كنيسة (سانت تريز) للأرمن الكاثوليك في شارع (بيروت) نفسه. المحطة الرابعة: كنيسة (قلب يسوع) للأقباط الكاثوليك في شارع الإمام علي. المحطة الخامسة: كنيسة (العذراء الطاهرة) للروم الكاثوليك الملحق بها العيادات ودار المسنين في ميدان (الإسماعيلية) بشارع نخلة المطيعي، المحطة السادسة: كنيسة (القديس كيرلوس) للروم الكاثوليك أيضًا في

الكورية. المحطة السابعة: كنيسة (سانت كاترين) للسريان الكاثوليك قرب ميدان (تريومف).

تضاف كنيسة (عذراء فاتيما) للكلدان الكاثوليك في ميدان (سانت فاتيما) إذا لم تحسب الكابيلا كمحطة منفصلة بذاتها.

مقطوعًا مثل يتيم في حفل تكريم للأمهات، يمشي م. مع المجموعة التي كان يعرفها في حياة أخرى. كانوا قد كبروا وزادت عليهم وجوه جديدة أصغر أصابتها الرزانة، يقولون جميعًا بصوت خفيض صلاة السِّبحة في شوارع مصر الجديدة.

من كنيسة إلى كنيسة، يدخلون ويصلون «الأبانا» و«السلام» و«المجد»، وهو معهم يعيد في رأسه الأحداث التي وقعت الشهور القليلة الماضية، مترنمًا مع الجمع السائر حتى لا تبلل الدموع وجهه.

فكّر في شيرين وظهرها المحنيّ كقوس رديء الصحة، مادة يديها مثل سفينة مُحطَّمة تطلب السلام، وكيف مد يده دون أن يقول شيئًا، دون أن يشعر بشيء. كيف حضنها وربَّت عليها حين انهارت، قائلًا إن كل شيء سيكون على ما يرام، رغم أنه كان يعرف أنه كاذب، فلم يكن شيء أبدًا على ما يرام.

فكّر حتى في العصابة التي أرسلت بعدها فتاة سمراء رقيقة تعامله كطفل يعيش في مصر الجديدة، لأنهم يريدون كلمة السر. حاول أن يتذكر

كلمة سر ماذا وفشل في الوصول إلى إجابة، لكنه أقر في النهاية أن الذنب كاثوليكي المنشأ.

حاول التركيز فيما يفعله الآن وهنا. اليوم خميس العهد. خميس الأسرار. كل الكنائس الكاثوليكيّة تقيم «صَمد القربان» لأنه اليوم المُخصّص لعبادة القربان المقدس ردًّا على سؤال المسيح لتلاميذه: أَهكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا مَعِي سَاعَةً وَاحِدَةً؟

المساء الأبريلي بدأ يحل بالخارج. حانت ساعة السجود ورتبة التوبة. يسمع صلاة السبحة بأصوات مختلطة من المجاميع الأخرى. يشعر أنها تستقبله هو بالذات. الكنيسة ضيقة تتسع لأكثر من شخص وأقل من شخصين. نظر طويلًا إلى تمثال القديسة ريتا داخل الصندوق الزجاجي المليء بورق الأدعية والطِلبات. ركع أخيرًا على ركبتيه إلى يسوع المصلوب في المنتصف وبكى.

المؤلف في سطور

مينا ناجي

كاتب وشاعر مصري، وُلِد في الكويت عام 1987. حصل على شهادة هندسة الاتصالات من الجامعة الألمانيّة بالقاهرة في 2014. عمل بالصحافة الثقافيّة والفنيّة وفي مجال الترجمة. نشر نصوصًا ومقالات في العديد من الصحف والمواقع مثل: «أخبار الأدب»، «القبس»، «الأخبار اللبنانيّة»، «شباب السفير»، «ختم السلطان»، «كتب مملة» وغيرها..

قائمة أعمال:

كتب:

- «سحرٌ حقيقيٌ» (2011) – دار «العين» – شِعر.
- «الجندبُ يَلهو حُرًا في شوارع القاهرة» (2013) – دار «كلمة» – مجموعة قصصيّة.

- «أسبُوع الآلام» (2013) – نشر إلكتروني – شِعر.
- «بِلا أجْنحَة» (2016) – دار «روافد» – رواية.

أفـلام:

- سيناريو وحوار الفيلم القصير «بهدوء» (2014) الذي عُرض في مهرجانات محليّة ودوليّة عديدة بأسبانيا والولايات المتحدة والسويد، وحصل على الجائزة الأولى في مهرجان بغداد السينمائي الدولي.
- سيناريو وإخراج الفيلم التسجيلي «تبدأ حين تنتهي» (2015) عن وسيلة العلاج الجماعيّة بالدراما والتمثيل – السيكودراما الحديثة.

برامج:

- برنامج «سوشي بوك ريفيو» على موقع «Youtube»: مراجعات مصوَّرة للكتب الأدبيّة والفكريّة ولقاءات مع كتّاب وشعراء (2017).
- بودكاست «مع مينا وإسلام» على موقع «ختم السلطان»: لقاءات مع كتّاب وشعراء ومترجمين حول المشهد الأدبي العربي المعاصر (2019).

البريد الإلكتروني:

mina-nagy-y@hotmail.com